خورخي لويس بورخيس

@ketab_n
Follow Me
27.5.2014

قَصَص

ترجمة : سعيد الغانمي

خورخي لويس بورخيس

ترجمة: سعيد الغانمي

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PQ7797.B635 F512 2013
Borges, Jorge Luis, 1899-1986
[Ficciones]
قصص / تأليف خورخي لويس بورخيس ؛ ترجمة سعيد الغانمي.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.
ص. 207 ؛ 13×19,5 سم.
ترجمة كتاب : Ficciones.
تدمك: 6–211–17–9948–978
أ– غانمي، سعيد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Jorge Luis Borges
Ficciones
Copyright © 1995, Maria Kodama
All rights reserved

كلمة KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

الهدهد HUDHUD
ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق – اللصيص دبي – الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

حديقة المسالك المتشعبة 9

تمهيد 11

إطلون، أُقبار، أوربس تيرتيوس 13

الدنو من المعتصم 39

بيير مينار، مؤلف «دون كيخوتة» 49

الخرائب الدائرية 63

النصيب في بابل 71

فحص أعمال هربرت كوين 18

مكتبة بابل 89

حديقة المسالك المتشعبة 103

احتيالات 119

تمهيد 121

ذاكرة فونس الحية 123

وسم السيف 135

موضوعة الخائن والبطل 143

الموت والبوصلة 149

المعجزة السرية 167

صور يهوذا الثلاث 177

النهاية 185

عبادة العنقاء 191

الجنوب 197

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى إيسثر زيمبورين دي توريس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حديقة المسالك المتشعبة
(1941)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تمهيد

لا تحتاج القصص الثمان في هذا الكتاب إلى توضيح كبير. فالثامنة منها («حديقة المسالك المتشعبة») هي قصة بوليسية؛ وسيرى القراء طريقة كتابتها وما تستلزمه جريمة لن يظل الغرض منها مجهولاً لديهم، ولكنهم، فيما أظن، لن يفهموها حتى يصلوا إلى المقطع الأخير. والبقية قصص فنطازية؛ إحداها («النصيب في بابل») ليست بريئة تماماً من الرمزية. ولست أول من كتب قصة «مكتبة بابل»، ويستطيع من يتطلعون إلى معرفة تاريخها وما قبل تاريخها أن يرجعوا إلى الصفحة المناسبة من مجلة «الجنوب»، العدد 59، الذي يدوّن الأسماء المتغايرة لليوسبوس ولاسفيتز ولويس كارول وأرسطوطاليس. وكل شيء في «الخرائب الدائرية» من وحي الخيال، أما في «بيير مينار، مؤلف دون كيخوتة» فيكمن انعدام الواقع في المصير الذي يفرضه بطل القصة على نفسه. وقائمة الكتابات التي نسبتها له ليست بالمذهلة جداً، لكنها ليست اعتباطية أيضاً؛ فهي تشكل مخططاً لتاريخه العقلي...

وإنه لإسرافٌ مجهد ومفقر في تأليف الكتب، أن يلاحق المؤلف في خمسمائة صفحة فكرة يمكن روايتها على نحو أفضل في خمس

Twitter: @ketab_n

دقائق شفوياً. وخير طريق للاستمرار فيها ادعاء أن هذه الكتب موجودة أصلاً، وتقديم خلاصة وشرح لأحدها. وهذا هو الإجراء الذي اتبعه كرلايل في «الخياط وقد أُعيدت خياطته»، وبطلر في «المنتجع الجميل»، وإن كانت هذه الأعمال تعاني نقيصة كونها كتباً، ولا تقل حشواً عن غيرها، ولكوني أكثر عقلانية، وأكثر سذاجة، وأكثر كسلاً، فقد اخترت أن أكتب ملاحظات عن كتب متخيلة، وهذه الملاحظات هي «إطلون، أُقبار، أوربس تيرتيوس»، و«فحص أعمال هربرت كوين».

خ. ل. ب.

Twitter: @ketab_n

إطلون، أُقبار، أوربس تيرتيوس
(Tlon, Uqbar, Orbis Terteus)

(1)

أدين باكتشاف أُقبار إلى اقتران مرآة وموسوعة. اضطربت المرآة المعلقة عند زاوية في البيت الكبير في كالاغوانا، في راموس ميخيا؛ أما الموسوعة المضللة فكانت تحمل اسم «الموسوعة الأنكلو– أمريكية» (نيويورك، 1917)، وهي نشرة حرفية، إن لم تكن ناقصة، لطبعة 1902 من «الموسوعة البريطانية». حصلت القضية بكاملها قبل بضع سنوات. تعشى معي بيوي كاسارين تلك الليلة، وتحدث لنا مطوَّلاً عن خطة عظيمة لكتابة رواية بضمير المتكلم، مستخدماً راوياً يحذف أو يفسد ما حدث، ويقع في تناقضات كثيرة، بحيث لا تتمكن إلا حفنة قليلة، وقليلة جداً، من القراء من كشف لغز الحقيقة المرعبة أو العادية التي تقف وراء الرواية. ومن نهاية الممر البعيدة، كانت المرآة تراقبنا؛ فاكتشفنا (في وقت متأخر من الليل، حين كان الاكتشاف حتمياً) أن المرايا تنطوي على شيء بشع. حينئذ تذكر بيوي قولاً أطلقه أحد مبتدعي أُقبار: **المرايا والجماع بغيضة لأنها تضاعف عدد الناس.** سألته عن مصدر هذا القول

Twitter: @ketab_n

السائر، فقال إنه ورد في «الموسوعة الأنكلو- أمريكية»، في مادتها عن أُقبار.

كان البيت الكبير (الذي استأجرناه مؤثثاً) يحتوي على نسخة من ذلك العمل. وفي الصفحات الأخيرة من المجلد (46)، وجدنا مادة حول «أُبسالا» (Uppsala)، وفي بداية المجلد (47) وجدنا مادة حول لغات الأُورال طاي، لكننا لم نجد كلمة واحدة حول أُقبار. مذهولاً بعض الشيء، عاد بيوي إلى مجلدات الفهارس. جرب كل إملاء ممكن للكلمة: أُقبار، أُوقبار، أُكبار، أُقبر، أُكبر... ولكن بلا طائل. وقبل أن يغادر أخبرني أنها منطقة إما في العراق أو في آسيا الصغرى. ولأعترف أنني وافقته بشيء من عدم الاطمئنان. وافترضتُ أن هذا البلد وصاحب بدعته المجهول كانا خيالاً ابتكره بيوي في لحظة تواضع، ليوجد سنداً لمثل جميل. وقوّى شكوكي بحثٌ عقيم في أحد أطالس جوستوس بيرثس.

في النهار التالي، اتصل بي بيوي من بوينس آيرس. أخبرني أن المادة عن أُقبار ماثلة بين يديه في المجلد (46) من الموسوعة واسم صاحب البدعة غير مذكور، لكن المادة تنقل مذهبه، مصوغاً بكلمات تطابق الكلمات التي اقتبسها بيوي، وإن تكن أضعف صياغةً من وجهة نظر أدبية. لقد تذكرها بيوي بصيغة: «الجماع والمرايا بغيضة»، في حين يقول نص الموسوعة: «العالم المنظور، عند أحد هؤلاء الغنوصيين، كان وهماً، أو بعبارة أدق، سفسطة. والمرايا والأبوة كريهة لأنها تضاعف

Twitter: @ketab_n

الأشياء وتجهر بها». أخبرتُ بيوي، ببالغ الإخلاص، أنني أود رؤية هذه المادة. وبعد بضعة أيام، جلبها لي – وهذا ما أذهلني، لأن الفهرس البياني المدقق في (Erdkunde) الذي عمله ريتر يغفل إغفالاً تاماً وجود اسم «أُقبار».

والمجلد الذي جلبه معه بيوي كان بالفعل المجلد (46) من «الموسوعة الأنكلو – أمريكية». وعلى كلٍّ من الغلاف الزائف والكعب، كان الدليل الألفبائي لمحتويات المجلد (Tor- Upps) يتوافق مع النسخة التي لدينا، لكن نسخة بيوي، بدلاً من أن تضم (917) صفحة مثل نسختنا، فقد كانت تضم (921) صفحة. وهذه الصفحات الأربع الإضافية هي التي تحتوي على مادة «أُقبار» – وهي مادة (لا بد أن القارئ انتبه) لم تراعِ الدليل الألفبائي. وقد قارنا فيما بعد بين المجلدين، ولم نجد بينهما أي فرق آخر. كلتاهما (كما قلت فيما أظن) نشرتان من الطبعة العاشرة من «الموسوعة البريطانية». وقد حصل بيوي على نسخته في صفقة شراء كتب من صفقات شرائه الكثيرة.

قرأنا المادة بعناية. وربما كانت الفقرة التي تذكرها بيوي هي الفقرة الوحيدة التي تستثير القارئ؛ أما البقية فتبدو محتملة جداً، وتتماشى مع النبرة العامة للعمل، وبالطبع، مملة قليلاً. وبإعادة قراءتها، اكتشفنا أن غموضاً جذرياً يطغى على طريقة كتابتها الصارمة. فمن مجموع أربعة عشر اسماً مذكوراً في المقطع الجغرافي، لم نعرف سوى ثلاثة: خراسان، وأرمينيا، وأرضروم – وقد دُسّت في النص بطريقة غريبة وغامضة.

Twitter: @ketab_n

ومن بين الأسماء التاريخية، لم نعرف سوى واحد، وهو اسم الدجال سميرديس المجوسي، والواقع أن ذكره ورد كاستعارة. وقد بدا أن المادة تريد رسم حدود «أُقبار» على وجه الدقة، غير أن نقاط الإحالة الغامضة التي توردها لم تكن سوى أنهار ووهاد وسلسلة جبلية في المنطقة نفسها. قرأنا، على سبيل المثال، أن دلتا «أكسا» ومنخفضات «تساي خلدون» تشير إلى الحدود الجنوبية، وأن الخيول البرية تتكاثر في جزر الدلتا. يرد هذا في أعلى الصفحة (918). وفي المقطع الخاص بتاريخ «أقبار» (ص 920)، نعرف أن الاضطهاد الديني في القرن الثالث عشر كان قد أجبر معتنقي العقيدة القويمة على اللجوء إلى هذه الجزر نفسها، حيث ما زالت تنتصب مسلاتهم، وما زال يكشف الحفر بين الحين والآخر عن مراياهم الحجرية. أما المقطع المعنون «اللغة والأدب» فكان وجيزاً. كانت هناك خاصية واحدة جديرة بالالتفات: إذ يشار إلى أن أدب «أُقبار» يمتاز بالفنطازيا بطبيعته، وأن ملاحمها وأساطيرها لا تحيل أبداً إلى الواقع، بل إلى منطقتين خياليتين هما «مليخناس» و«إطلون»... وتدرج قائمة المصادر أربعة مجلدات ما زال ينبغي العثور عليها، وإن كان الثالث– أعني كتاب سيلاس هسلام: «تاريخ الأرض المسماة أُقبار»، 1874 – يظهر في دليل مكتبة برنارد كويرتش لبيع الكتب[1]. والكتاب الأول: Lesbare und lesenswerthe Bemerkungen über das land Ukkbar) (in Klein- Asien يحمل تاريخ 1641، وهو من تأليف شخص اسمه

(1) نشر هسلام أيضاً كتاباً آخر عنوانه «تاريخ عام للمتاهات».

Twitter: @ketab_n

يوهانس فالنتينوس أندريا. وهذه واقعة مهمة: حيث وجدت بعد سنتين أو ثلاث هذا الاسم عرضاً في صفحات كتابات دي كوينسي (المجلد 13)، وعرفت من خلاله أن هذا الاسم كان اسم لاهوتي ألماني وصف، في مطلع القرن السابع عشر، طائفة خيالية هي «الصليب الوردي»، التي أسسها آخرون فيما بعد، في محاكاة لما تصوره.

تلك الليلة، قمنا، أنا وبيوي، بزيارة «المكتبة الوطنية». وعبثاً نقبنا في الأطالس والفهارس وحوليات الجمعيات الجغرافية ومذكرات الرحالة والمؤرخين، إذ لم يحدث أن زار أحدٌ منهم أُقبار أبداً. كما لا يحتوي الدليل العام في نسخة بيوي من الموسوعة على ذلك الاسم. وفي اليوم التالي، وقع نظر كارلوس ماسترونارديي، الذي رويت له كل هذا، على الكعوب السوداء والذهبية من «الموسوعة الأنكلو – أمريكية» لدى بائع كتب في زاوية في كوريينتس وتالكاخوانو... دخل وبحث في المجلد 46. وبالطبع لم يجد أدنى ذكر لأُقبار.

(2)

ما زالت ذكرى محدودة وشاحبة لشخص اسمه هربرت آش، وهو مهندس في خط سكة الحديد الجنوبية، عالقة بفندق في أندروغيه، بين الكروم المتدفقة المعرشة وأعماق المرايا الوهمية. في حياته، كان آش يعاني من انعدام الواقع، مثلما يفعل كثير من الإنجليز؛ وبعد موته، لم يعد حتى ذلك المخلوق الشبحي الذي كانه في حياته. كان طويل

Twitter: @ketab_n

القامة، باهت الملامح؛ ولحيته المستطيلة الكثيبة كانت حمراء من قبل. أتفهم أنه كان أرمل، ولم ينجب طفلاً. كل بضع سنين، يذهب عائداً إلى إنكلترا، لكي يزور – احتكاماً إلى الصور التي أرانا إياها– مزولة ويقف بين أشجار البلوط. وقد عقد أبي (وقد يبدو الفعل مغالياً) معه واحدة من تلك الصداقات الإنجليزية التي تبدأ بتحاشي الحميمية وتنتهي بإلغاء الكلام تماماً. كانا يتبادلان الكتب والصحف، ويغلب كلٌّ منهما الآخر في الشطرنج، دون نطق كلمة واحدة... أتذكره في ممر الفندق، وفي يده كتاب رياضيات، متطلعاً بين الحين والآخر إلى ألوان السماء الآفلة. ذات مساء، تحدثنا عن النظام العددي الاثناعشري (الذي يُكتب فيه اثنا عشر 10). قال إنه بالمصادفة كان حينئذ يحول جدولاً اثناعشرياً أو آخر إلى جدول ستينيّ (تكتب فيه ستون 10). وأضاف أنه كان مخولاً بأداء هذه المهمة من قبل رجل نرويجي في ريو غراندي دو سول. لقد عرفته منذ ثمان سنين، ولم يذكر مرة قط أنه أقام في ذلك الجزء من البرازيل... تحدثنا عن الحياة الريفية، وعن «العلوج» (capangas)، وعن الاشتقاق البرازيلي لكلمة (guacho)، (التي ما زالت بعض الأقوام القديمة في أورغواي تلفظها ga-ucho)، ولم يتجاوز حديثنا –اللهم عفوك– نحو التطرق إلى النظم الاثنا عشرية. وفي أيلول من سنة 1937 (حين لم نعد أنا ووالدي نعيش في الفندق) توفي هربرت آش بتمزق الأوعية الدموية. قبل أيام من وفاته، كان قد تلقى طرداً بريدياً مختوماً، مسجلاً من البرازيل يحتوي على كتاب مطبوع بقطع الثمن. وقد تركه آش في المشرب،

Twitter: @ketab_n

حيث وجدته بعد شهور. بدأت بتقليب أوراقه، وفجأة شعرت بدوار مذهل قليلاً، لن أصفه هنا، ما دامت هذه القصة لا تتعلق بانفعالاتي، بل قصة أُقبار وإطلون وأوربس تيرتيوس. في العالم الإسلامي، هناك ليلة واحدة، تُدعى «ليلة الليالي»، تنفتح فيها أبواب السماء السرية على مصاريعها، ويطيب الماء في جراره فيصير أعذب، ولو انفتحت لي تلك الأبواب، فلن أشعر بما شعرت به تلك الأمسية. كان الكتاب في اللغة الإنجليزية، ويحتوي على 1001 صفحة. وعلى الكعب الجلدي الأصفر، وعلى صفحة الغلاف أيضاً، قرأت الكلمات التالية: **موسوعة إطلون الأولى. المجلد 11. من هلار إلى جانغر.** ولا يوجد تاريخ أو مكان للطبع. وعلى الصفحة الأولى وقصاصة الورق الحريري الشفاف التي تغطي أحد رسومه المصورة، كان هناك ختم بيضوي أزرق بهذا النقش: **أوربس تيرتيوس**. قبل سنتين، كنت اكتشفت في أحد مجلدات موسوعة مطبوعة وصفاً وجيزاً لبلد زائف؛ وها أن القدر يضع أمامي شيئاً أثمن وأكثر مدعاة للتفكير. فبين يديَّ الآن شذرة مستفيضة عن التاريخ الكامل لكوكب مجهول، بعماراته وأوراق لعبه، ورعب أساطيره وتمتمة ألسنته، وأباطرته وبحاره، ومعادنه وطيوره وأسماكه، بجَبْرِه وناره، ومناقشاته اللاهوتية والغيبية، وقد وردت جميعاً بمنتهى الوضوح والتماسك، ومن دون أي غرض مذهبي جلي، أو نبرة من السخرية.

يشير المجلد الحادي عشر الذي أتحدث عنه إلى مجلدات أخرى سابقة ولاحقة أيضاً. وقد أنكر نسطور إبارا، في مقالة صارت كلاسيكية الآن

Twitter: @ketab_n

(نشرها في .N.R.F)، وجود مثل هذه المجلدات الدلائلية، وأفلح حزقيال مارتنيه إسترادا ودرايو لا روشيل، على ما أظن، في تفنيد هذه الشكوك. والحقيقة أن أكثر البحوث اجتهاداً أثبتت عدم جدواها حتى الآن. عبثاً قلبنا مكتبات أوربا والأمريكيتين رأساً على عقب. اقترح ألفونسو رايس، وقد اجتاحه السأم من مشاق العمل البوليسي، أن نعيد فيما بيننا، بناء المجلدات المفقودة، مهما بلغ طولها واتساعها: (ex ungue leonem). كان يحسب، نصف جاد، أن جيلاً واحداً من «الإطلونيين» يكفي. ويعيدنا هذا التقدير الجريء إلى المشكلة الأولى: من هم الناس الذين اخترعوا الإطلونيين؟ وأعتقد أن صيغة الجمع ضرورية، ما دام افتراض خالق واحد – أي لاينتز متعالٍ يعمل في غموض وتواضع– قد أُهمل بالإجماع. ونحن نخمن أن هذا «العالم الجديد الشجاع» كان من عمل جمعية سرية من الفلكيين، وعلماء الأحياء، والمهندسين، والميتافيزيقيين، والشعراء، والكيميائيين، والرياضيين، والأخلاقيين، والرسامين، والهندسيين... تحت إشراف عبقري مجهول. هناك كثيرون يتقنون هذه العلوم المختلفة، لكن قلة قليلة تستطيع اجتراح الخيال، وأقل منهم من يُخضعون هذا الخيال إلى خطة نسقية صارمة. والخطة من الاتساع بحيث تكون مساهمة كل واحد من هؤلاء متناهية في الصغر.

في البداية، كان يُعتقد أن إطلون هو مجرد خواء، وعمل مطلق العنان من أعمال الخيال، أما الآن فقد صار من الواضح أنه كون مكتمل، وأن القوانين الصارمة التي تحكمه صيغت بعناية، وإن كانت مؤقتة. ويكفي

Twitter: @ketab_n

أن نذكّر القارئ بأن التناقضات الظاهرة في المجلد الحادي عشر تشكل أساس البرهنة على وجود المجلدات الأخرى، وأنها تراعي خطة محكمة وواضحة تناسبها تماماً. وقد نشرت بعض المجلات الشعبية، بإفراط يمكن غفرانه، الأوصاف الحيوانية والطوبوغرافية في إطلون. وفي تقديري، فإن نموره الشفافة وأبراج الدم التي فيه قد لا تستحق كل هذا الاهتمام الذي أُولي له من بني البشر جميعاً. لكنني أستميح القارئ في قليلٍ من الوقت لإيجاز تصوره عن الكون.

لقد أوضح هيوم مرة وإلى الأبد أن حجج باركلي ليست فقط غير قابلة للتفنيد، بل هي أيضاً لا توحي بأدنى قناعة. وهذا الحكم يصحُّ تماماً على عالمنا في كوكب الأرض، لكنه لا يصح مطلقاً في إطلون. لأن الأمم مثالية بالفطرة في ذلك الكوكب. ولغتهم وما يُشتق من لغتهم – من دين وأدب وميتافيزيقا– تفترض المثالية مسبقاً. فالعالم، عند أهل إطلون، ليس تجاوراً للأشياء في المكان؛ بل هو سلسلة متباينة من الأفعال المستقلة، أي أن العالم زماني، متتابع، لكنه ليس مكانياً. ولا توجد أسماء في «لسان» (Ursprache) إطلون الافتراضي، الذي تستمد لغاتهم ولهجاتهم الحالية وجودها منه، بل يقتصر الأمر على الأفعال والمصادر المجردة غير الشخصية، التي يتم تعديلها بإضافة سوابق ولواحق أحادية المقطع لتؤدي وظيفة الظروف. على سبيل المثال، لا يوجد اسم يتطابق مع كلمة (قمر) عندنا، لكنْ هناك فعل مثل «يقمر» أو «يقتمر». وتكتب عبارة (أطل القمر فوق النهر) بصيغة (هلور و فانغ أكساكساكساس

Twitter: @ketab_n

ملو): (hlor u fang axaxaxas mlo)، أي إذا وضعناها على الترتيب: (في الأعلى فوق التدفق المتواصل هناك اقتمار)، أو كما ترجمها خول سولار بإيجاز بليغ: «عالياً، اقتمر فوق الجريان».

يصح هذا المبدأ على لغات نصف الكرة الجنوبي من الكوكب. أما في نصف الكرة الشمالي (الذي لا يحتوي المجلد الحادي عشر إلا على معلومات ضئيلة جداً حول لغاته)، فإن الوحدة الأساسية ليست الفعل، بل الصفة أحادية المقطع. تتكون الأسماء بمراكمة الصفات ورصفها معاً. فلا يقول المرء «القمر»، بل يقول «الساطع – الهوائي فوق المستدير المظلم» أو «السماوي البرتقالي الشاحب» أو أية تأليفات أخرى. وفي هذه الحالة، فإن مركب الصفات لا يتطابق مع موضوع واقعي، بل هو مجرد رصف اتفاقي تماماً. ويعج أدب نصف الكرة الشمالي (كما هو الحال مع عالم ماينونغ الأصغر) بالموضوعات المثالية، تستدعى وتزال في لحظة، كما يتطلب الشعر. وأحياناً يخلقها التزامن المحض. وهناك موضوعات تتكون من عنصرين حسيين، أحدهما بصري، والآخر سمعي: لون الشروق ونداء طائر بعيد. وهناك موضوعات تتشكل من عناصر كثيرة: الشمس والماء في مقابل صدر السبّاح، واللون الوردي الرعاش الذي يراه المرء حين يغمض عينيه، والشعور بالانجراف في نهر أو نوم. وقد تجتمع هذه الموضوعات من الدرجة الثانية مع غيرها؛ والحقيقة أن العملية لا تنتهي، إذا استعملنا بعض المختصرات. هناك قصائد شهيرة تتكون من كلمة واحدة عملاقة؛ وهذه الكلمة هي «موضوع شعري»

Twitter: @ketab_n

يخلقه الشاعر. وكون عدم وجود أحد يؤمن بأن هذه الأسماء تدل على الواقع يعني، ويا للمفارقة، أنه لا حدَّ لأعدادها. وتضم لغات نصف الكرة الشمالي من إطلون جميع الأسماء في اللغات الهندو – أوربية، فضلاً عن الكثير، الكثير، غيرها.

وليس من المبالغة القول إن الثقافة الكلاسيكية في إطلون تتكون من عِلْم واحد – هو علم النفس – وتلحق به العلوم الأخرى جميعاً. وقد أشرت من قبل إلى أن سكان ذلك الكوكب لا يتصورون الكون سلسلة من العمليات العقلية التي تجري في المكان، بل بالأحرى تتابعياً، وفي الزمان. يعزو إسبينوزا للإله الذي لا يستنفد في الإنسان خاصيتي الامتداد المكاني والفكر. وما من أحد في إطلون يفهم معنى عطف الأول، الذي هو مجرد خاصية لبعض حالات الوجود، على الثاني، الذي هو رديف كامل للكون بأسره. فهم، بتعبير آخر، لا يتصورون المكان استمراراً في الزمان. ورؤية غيمة من الدخان في الأفق، ثم رؤية الريف وهو يشتعل، وبعد ذلك رؤية سيجارة نصف منطفئة تسببت في إشعال حريق، قد يُعتبر مجرد مثال على اقتران الأفكار وتداعيها.

وهذه الواحدية، أو المثالية المتطرفة، تبطل العلم إبطالاً تاماً. فتفسير حدث معين (أو إصدار حكم بحقه) يعني ربطه أو توحيده مع حدث آخر. في إطلون، يمثل هذا الربط مرحلة متأخرة في عقل الملاحظ، ولا يمكن لها أن تؤثر في المرحلة الأولى أو تلغيها. إذ لا يمكن اختزال أية حالة عقلية. ومجرد فعل إعطائها اسماً – أي تصنيفها– يعني تزييفاً

Twitter: @ketab_n

لها. ومن هذا كله، يمكن أن نستنتج أنه لا يوجد «علم» في إطلون، ناهيك عن «التفكير العقلي». لكن المفارقة أن العلوم موجودة، وبعدد لا ينحصر. في الفلسفة، يحصل الشيء نفسه الذي يحصل مع الأسماء في نصف الكرة الشمالي؛ فكون أي نسق فلسفي محكوماً مسبقاً بأنه لعبة جدلية، أي philosophie des Als Ob ، يعني أن تتكاثر الأنساق الفلسفية، فتتراكم الأنساق على الأنساق على نحو لا يصدق، ولكنه مبني بناءً معمارياً جميلاً أو بحسية متفق عليها. وميتافيزيقيو إطلون لا يبحثون عن الحقيقة، ولا حتى عما يقرب منها؛ بل هم ينشدون الإدهاش. وهم يعتبرون الميتافيزيقا فرعاً من أدب الفنطازيا. فهم يعرفون أن النسق لا يعني شيئاً سوى إخضاع جميع مظاهر الكون إلى واحد منها. بل إن عبارة «جميع المظاهر» يمكن أن تُرفَضَ، ما دامت تفترض مسبقاً التضمين المستحيل للحظة الحاضرة أو اللحظات الماضية معاً. وكذلك لا يُرتضى التعبير عن «اللحظات الماضية» بالجمع، ما دامت تفترض مسبقاً عملية مستحيلة أخرى... وقد توصلت إحدى مدارس الفلسفة في إطلون إلى حد إنكار وجود الزمان. وهي ترى أن الحاضر غير محدد، وأن المستقبل لا يمثل سوى واقع الأمل الحاضر، وأن الماضي ليس أكثر من ذاكرة حاضرة[1]. وترى مدرسة أخرى أن الزمان كله كان قد مرَّ وانقضى أصلاً، ولذلك فحياتنا ليست سوى ذكرى غسقية، أو

(1) يفترض راسل (تحليل العقل، 1921، ص 159) أن العالم خُلق قبل لحظات قليلة، وامتلأ بكائنات إنسانية «تتذكر» ماضياً وهمياً.

Twitter: @ketab_n

انعكاس معتم، لا شك أنه زائف ومتشظٍّ، لعملية غير منعكسة ولا يمكن استردادها. وهناك مدرسة أخرى تزعم أن تاريخ الكون - وفيه بالطبع حيواتنا كلها، وأدق التفاصيل الدقيقة في حيواتنا- ليس سوى كتابة يكتبها إله تابع بيده محاولاً أن يتواصل مع شيطان. بينما تصر مدرسة أخرى على أنه يمكن مقارنة الكون بتلك النظم الرمزية، التي لا تكون فيها معان لجميع الرموز، وأن الحقيقي منها هو ما يحدث كل ثلاثمائة ليلة. وتذهب أخرى إلى أننا نائمون هنا، في حين أننا يقظون في مكان آخر، ولذلك فكل إنسان هو في الحقيقة إنسانان.

ومن بين جميع المذاهب في إطلون، ما من مذهب أحدث الاضطراب كمثل ما أحدثته المادية. وقد صاغ بعض المفكرين هذه الفلسفة (عموماً وبحماس يقل عن الوضوح) وكأن الإنسان يضع أمامه مفارقة. ولكي يجعل من هذه الأطروحة غير القابلة للتصور أمراً أيسر فهماً، تصور أحد مبتكري البدع من القرن الحادي عشر[1] حكاية العملات النحاسية التسع، وهي مغالطة افتضح صيتها كما افتضحت مغالطات زينون الأيلي في عصرنا نحن. وهناك صور كثيرة لهذا «الجدل الخادع» بأعداد عملات متنوعة واكتشافات متباينة؛ أشهرها ما يأتي:

يوم الثلاثاء، يمشي (س) على طريق مهجور، ويفقد تسع قطع نحاسية. يوم الخميس، يعثر (ص) على أربع قطع

(1) يحسب «القرن» حسب النظام الاثنا عشري المتبع في إطلون، وهو فترة تستغرق 144 سنة.

Twitter: @ketab_n

في الطريق، وقد انطفأ بريقها قليلاً بفعل أمطار الأربعاء.
يوم الجمعة، يعثر (ي) على ثلاث قطع في الطريق. صباح
الجمعة يجد (س) قطعتين في ممشى بيته.

أراد صاحب البدعة من هذه الحكاية أن يستخلص الحقيقة – أي استمرارية الزمان– من تلك القطع النقدية التسع المستعادة. قال «إنه لمن العبث أن نتخيل أن أربعاً من القطع لم توجد من الثلاثاء إلى الخميس، وثلاثاً من الثلاثاء إلى مساء الجمعة، وقطعتين من الثلاثاء إلى صباح الجمعة. ومن المنطقي أن نفكر أنها كانت في الواقع موجودة – وإن يكن وجودها بطريقة سرية يخفى فهمها على البشر– في كل لحظة من لحظات الفترات الزمنية الثلاث».

تقاوم لغة إطلون بطبيعتها صياغة هذه المفارقة؛ ولا يفهمها أكثر الناس فيها. في البداية، اكتفى المدافعون عن الحس العام بإنكار حقيقة هذه الحكاية. وقد زعموا أنها مغالطة لفظية قائمة على استعمال طائش لتعبيرين لفظيين، أو لفظتين لا يبيحهما الاستعمال الجاري، وتتناقضان مع قوانين الفكر الصارمة: وهما لفظتا «يعثر» و«يفقد»، اللتان تستلزمان، ما دامتا تفترضان وحدة هوية القطع التسع الأولى والقطع التسع الأخيرة، مصادرةً على المطلوب (petitio principii). وذكّر هؤلاء النقاد قراءهما بأن أي اسم – إنسان، نقود، الثلاثاء، الأربعاء، المطر– ليس له سوى قيمة استعارية. وقد أنكروا التفصيل الخادع: «انطفأ بريقها قليلاً

Twitter: @ketab_n

بفعل أمطار الأربعاء»، باعتباره يفترض مسبقاً ما يريد البرهنة عليه: أي استمرار وجود القطع النقدية الأربع بين الثلاثاء والخميس. وأوضحوا أن «المساواة» شيء، و«الهوية» شيء آخر، وصاغوا نوعاً من «قياس الخلف» (reductio ad absurdum) – أي افتراض حالة تسعة رجال يعانون، على امتداد تسع ليالٍ متتابعة، من ألم جسيم. وسألوا: أليس من العبث أن ندعي أن الرجال عانوا من الألم نفسه بعينه[1]؟ وزعموا أن صاحب البدعة كان يدفعه في الأساس هدف تجديفي في عزو مقولة «الوجود» الإلهية إلى بعض القطع النقدية العادية، وأنه ينكر التعددية أحياناً، ولا ينكرها أحياناً أخرى. ويمضون في محاججتهم قائلين: إذا كانت المساواة تعني الهوية، فينبغي القبول أيضاً بأن القطع التسع ليست في حقيقتها سوى قطعة واحدة.

والغريب حقاً أن هذه التفنيدات لم تكن حصرية. فبعد أن طُرحت هذه المشكلة بمائة سنة، تقدم أحد المفكرين الذين لا يقلون براعة عن صاحب البدعة نفسه، ولكن في تراث العقيدة القويمة، وصاغ افتراضاً أشد جرأة. كان افتراضه السعيد يقول إنه لا توجد سوى ذات واحدة غير قابلة للقسمة؛ وهذه الذات غير القابلة للقسمة تشمل كل وجود في الكون، وموجودات الكون هي أدوات الألوهية وأقنعتها. (س) هو

(1) يزعم أحد المعتقدات الدينية في إطلون في الوقت الحاضر زعماً أفلاطونياً أن الألم في ذاته، واللون الأصفر المائل إلى الحمرة في ذاته، والحرارة في ذاتها، والصوت في ذاته، هي كلها حقيقة واحدة بعينها. جميع الرجال، في لحظة الجماع المدوخة، هم الرجل نفسه. وكل الرجال الذين يتلفظون بيتاً لشكسبير هم وليم شكسبير.

Twitter: @ketab_n

(ص)، وهو نفسه (ي). يكتشف (ي) ثلاث قطع لأنه يتذكر أن (س) أضاعها. ويعثر (س) على قطعتين في ممشى بيته، لأنه يتذكر أن الآخرين قد عثرا على... يوحي المجلد الحادي عشر أن وحدة الوجود المثالية هذه انتصرت على المدارس الفكرية الأخرى جميعاً لثلاثة أسباب أساسية: الأول أنها تنصلت من انفرادية الأنا. والثاني أنها جعلت بالإمكان الاحتفاظ بالأساس النفسي للعلوم. والثالث أنها سمحت بالإبقاء على الدين والعبادة. وقد قدّم شوبنهاور، المتقد انفعالاً ووضوحَ فكرٍ، نظرية مماثلة في الجزء الأول من كتابه «الحواشي والبواقي» (Parerga und Paralipomena).

وتتكون هندسة إطلون من نظامين متميزين على نحو ما، أحدهما بصري، والآخر لمسي. ويتطابق النظام اللمسي مع هندستنا، لكنهم يعتبرونه تابعاً للأول. ويكمن أساس الهندسة البصرية في السطح، وليس في النقطة. وينفي هذا النظام مبدأ التوازي، ويزعم أن الجسم، حين ينتقل في المكان، يغير هيئة الأشكال التي تحيط به. ويعتمد النظام الحسابي على فكرة الأعداد اللامحدودة. وهو يؤكد على أهمية مفهومي «الأكبر» و«الأصغر»، اللذين يرمز لهما الرياضيون عندنا برمزي < و >. ويعتقد أهالي إطلون أن فعل العدّ يغيّر الكمية المعدودة، ويحول اللامحدودات إلى محدودات. وكون عدد من الأفراد يحسبون كمية بعينها ويتوصلون إلى النتيجة نفسها إنما يعني، لدى علماء النفس عندهم، مثالاً على اقتران الأفكار أو الاستعمال الجيد للذاكرة. وينبغي أن نتذكر دائماً أن الذات

Twitter: @ketab_n

العارفة، في إطلون، هي واحدة وأبدية.

في عالم الأدب، أيضاً، فإن الفكرة المهيمنة هي أن كل شيء هو من نتاج ذات واحدة ووحيدة. ونادراً ما تحمل الكتب أسماء مؤلفين، ولا يوجد لديهم مفهوم الانتحال؛ فقد ترسخ لديهم أن جميع الكتب من عمل مؤلف واحد لا زمن له ولا هو بمعروف. وغالباً ما يبتكر النقد الأدبي المؤلفين: يختار الناقد عملين مختلفين – لنقل مثل «تاو تي تشنغ» و«ألف ليلة وليلة»– ويعزوهما لمؤلف واحد بعينه، وحينئذ يستكشف بضمير مطمئن نفسية هذا «الأديب» المثير...

وكتبهم أيضاً تختلف عن الكتب لدينا. فليس في قَصصهم سوى حبكة واحدة، تظل تجري في كل تبدل متخيل. وتحتوي أعمالهم ذات الطبيعة الفلسفية بصورة متنوعة على القضية ونقيض القضية، وما يقف مع النظرية وما يقف ضدها على حد سواء. ولذلك فالكتاب الذي لا ينطوي على كتابه النقيض يُعَدُّ ناقصاً.

لم تكد تؤثر قرون في إثر قرون من المثالية على الواقع. وفي أكثر الأرجاء قدماً من إطلون، لا يندر أن ينتبه المرء إلى مضاعفة الأشياء المفقودة: يبحث شخصان عن قلم رصاص، فيجده الشخص الأول منهما، لكنه لا يقول شيئاً، ويجد الثاني قلماً ثانياً، لا يقل واقعية، لكنه أكثر اتصالاً بتوقعاته. وتُدعى هذه الأشياء الثانوية «هرونير» (hronir)، وهي وإن كانت قبيحة الصورة، فإنها أكبر قليلاً من الأصول. وحتى وقت قريب، كانت «الهرونير» نتاجاً عارضاً للشرود والنسيان.

Twitter: @ketab_n

ويصعب الاعتقاد أنها بقيت تُنتج على نحو نسقي لما يقرب من مائة سنة، لكن هذا ما يقوله لنا المجلد الحادي عشر. كانت المحاولات الأولى عقيمة. مع ذلك، فإن طريقة العمل جديرة بالاهتمام. أخبر أمين سجون إحدى الولايات محكوميه بأنه ينبغي العثور على بعض الأضرحة في قرار نهر قديم، ووعد بحرية أي سجين يعثر على لقية مهمة. وفي الشهور التي سبقت التنقيب، كانت تعرض على السجناء صور مطبوعة لما ينبغي العثور عليه. وبرهنت المحاولة الأولى أن الأمل والطمع كانا كابحين؛ إذ لم يفلح أسبوع من العمل بالمجرفة والمعول في العثور على أي «هرون» سوى عجلة صدئة، يتأخر تاريخها عن التجربة. واحتُفظ بهذا الأمر سراً، لكن التجربة تكررت فيما بعد في أربع كليات ومعاهد. وتقريباً كان الفشل كاملاً في ثلاث منها؛ أما الرابعة (التي حدث أن مات المدير فيها في أثناء التنقيبات الأولى) فقد كشف فيها الطلاب (أو أنتجوا) قناعاً ذهبياً، وسيفاً عتيقاً، وجرتين أو ثلاث جرار خزفية، وجذع تمثال منحوت مشوه لملك يحمل على صدره نقشاً لم يُفَكَّ لغز كتابته بعد. وهكذا اكتُشف انعدام أهلية الشهود الذين كانوا ملمين بالطبيعة التجريبية للبحث... وأثمرت البحوث الجماعية عن إيجاد لقى تتناقض مع بعضها، وصارت المشاريع الفردية، ما دامت تلقائية وممكنة، تحظى بالتفضيل. وبذلك صار الإنتاج النسقي «للهرونير» (كما يقول المجلد الحادي عشر) يقدم عوناً لا يقدر بثمن لعلماء الآثار، فقد أتاح لهم ليس فقط استنطاق الماضي، وإنما تعديله أيضاً، وهو ما أصبح الآن لا يقل

Twitter: @ketab_n

طواعية ومرونة عن المستقبل. وهناك واقعة غريبة: وهي أن «الهرونير» من الدرجة الثانية والثالثة – أي «الهرونير» المشتقة من «هرون» آخر، و«الهرونير» المشتقة من «هرون هرون» سابق– قد بالغت في فيض الأصلي؛ فما هو من الدرجة الخامسة يكاد يكون متماثلاً، وما هو من الدرجة التاسعة قد يختلط بما هو من الدرجة الثانية، وما هو من الدرجة السابعة عشرة يمتاز بصفاء في الشكل لا تمتلكه الأصليات. وهكذا تطَّرد العملية؛ يبدأ «هرون» من الدرجة الثانية عشرة بالانحلال من حيث النوعية. وأغرب الهرونير وأصفاها أحياناً هو «أور» (ur)، وهو شيء ينتجه الاقتراح، أي موضوع يوجده الأمل. والقناع الذهبي العظيم الذي ذكرته سابقاً هو مثال بارز. فالأشياء تضاعف نفسها في إطلون، وهي تنحو إلى طمس نفسها أحياناً، وتضيع تفاصيلها، حين ينساها الناس. والمثال الشهير على ذلك هو حالة حجر العتبة الذي بقي ما بقي يزوره أحد الشحاذين، وتلاشى عن الأنظار بموته. أحياناً أنقذت بعض الطيور، وربما حصان، خرائب مسرح مدرج.

سالتو الشرقية، 1940

حاشية – 1947

أعيد نشر المادة أعلاه كما ظهرت في «قطوف من الأدب الفنطازي»، 1940، ولم أحذف منها سوى بعض المجازات ونوعٍ من الإيجاز الساخر، مما يبدو لي الآن طائشاً. ولقد حدثت أشياء كثيرة منذ عام 1940... أكتفي

Twitter: @ketab_n

هنا بذكر بعض منها.

في آذار، 1941، خرجت إلى النور رسالة مخطوطة من غونار إرفخورد في مجلد «هنتون»، الذي كان يعود إلى هربرت آش. كان المظروف يحمل ختم «أورو بريتو». وقد كشفت هذه الرسالة لغز إطلون تماماً. أكد نصها الفرضية التي ذهب إليها مارتنيه إسترادا. بدأت القصة الجميلة في وقت ما من بواكير القرن السابع عشر، في ليلة في لوسيرن أو لندن. ولدت جمعية خيرية سرية (انخرط بين أعضائها دالغارنو، وفيما بعد، جورج باركلي)؛ وكانت رسالتها تتلخص في اختراع بلد. تتصدر منهاجها الأولي «الدراسات الهرمسية»، والفلسفة، والقبالة. (ويعود تاريخ كتاب فالانتينوس أندريا الغريب إلى تلك الفترة المبكرة). بعد عدة سنين من المحادثات والمسودات المبتسرة، أدرك أعضاء الجمعية أن جيلاً واحداً لا يكفي لخلق بلد وإعطائه تعبيره الكامل. فقرروا أن أي أستاذ انتمى إلى الجمعية ينبغي أن يصطفيَ تلميذاً يتصدى للاستمرار في العمل. وتواصل هذا الترتيب الوراثي؛ بعد انقطاع لمدة قرنين، عادت الأخوة المضطهدة إلى الظهور في أمريكا. وزهاء عام 1824، في ممفيس وتنيسي، خاض أحد الأعضاء مناقشة مع المليونير الزاهد عزرا باكلي. ترك باكلي الرجل يتحدث، بشيء من الاحتقار، ثم اندفع ضاحكاً من تواضع المشروع. وأوضح أن من العبث في أمريكا اختراع بلد، والأولى اختراع كوكب بكامله. وأضاف إلى هذه الفكرة العملاقة فكرة أخرى تولدت

Twitter: @ketab_n

عن عدميته[1]، وهي الإبقاء على هذا المشروع الخطير سراً. في ذلك الوقت، كانت المجلدات العشرون من «الموسوعة البريطانية» رائجة في التداول، فاقترح باكلي موسوعة نسقية شاملة عن الكوكب الوهمي؛ أن يتنازل للجمعية عن جباله المعرَّقة بالذهب، وأنهاره الصالحة للملاحة، ومروجه التي تعج بالثيران والظباء، وزنوجه، ومواخيره، ودولاراته، كما قال، مقابل شرط واحد: «ألا يتعاقد العمل بأية صورة مع الدجال يسوع المسيح». لم يكن باكلي يؤمن بإله، مع ذلك أراد أن يبرهن للإله غير الموجود أن البشر الفانين يستطيعون أن يتصوروا شكل عالم ما. وفي عام 1828، توفي باكلي مسموماً في «باتون روج»؛ وفي 1914، أرسلت الجمعية لأعضائها (الذين زاد عددهم عن ثلاثمائة الآن) الجزء الأخير من «موسوعة إطلون الأولى». كانت الطبعة سرية: والمجلدات الأربعون التي تتكون منها (كان العمل أوسع من أي عمل أنجزه البشر سابقاً) كان ينبغي أن تكون أساساً لعمل آخر، أكثر تفصيلاً، ولا يكون مكتوباً بالإنجليزية هذه المرة، بل بواحدة من لغات إطلون. وقد أُطلق على هذا المسح لهذا العالم الوهمي اسم «أوربس تيرتيوس» عمداً، وكان من صانعيه المتواضعين هربرت آش، ولا أستطيع أن أجزم ما إذا كان زميلاً لغونار إرفخورد، أم عضواً كامل العضوية. ويبدو أن وصل نسخته من المجلد الحادي عشر يرجح الاحتمال الأول. ولكن ماذا بشأن الآخرين؟ زهاء عام 1942، بدأت الأحداث بالتسارع. أتذكر بوضوح فريد واحداً

(1) كان باكلي مفكراً حراً، وقدرياً، ومدافعاً عن العبودية.

Twitter: @ketab_n

من أول الأحداث التي حصلت، وهو شيء شعرت بطبيعته التحذيرية، كما أعتقد، حتى حينئذ. وقد حصل في شقة في «لابريدا»، ومن شرفة عالية تطل على الشارع، وتتطلع إلى الغروب. من «بواتيه»، تلقت الأميرة «فاوسغني لوسنج» علبةً تحتوي على خدمة مائدتها الفضية. ومن أحشاء العلبة المرزومة المزينة بأختام الكمارك الدولية، استخرجت الأشياء الجوامد الجميلة: طبقاً من أوترخت وباريس، مرصعاً بحيوانات تحذيرية صلبة... سماوراً. بين القطع ترتعش، رعشة خفيفة ولكن محسوسة، مثل طائر نائم، بوصلة تخفق سراً. لم تتعرف الأميرة عليها. تحن إبرتها الزرقاء نحو الشمال المغناطيسي، وعلبتها المعدنية مقعرة، وتنتمي الحروف المكتوبة على مزولتها إلى إحدى أبجديات إطلون. كان هذا أول تطفل من عالم إطلون الخيالي على العالم الواقعي.

وشاءت مصادفة مزعجة أن أكون شاهداً على تطفل ثانٍ. حصل هذا بعد عدة شهور في مخزن بقالة يملكه برازيلي في كوشيلا نيغرا. كنا عائدين أنا وأموريم من سانت –أنا. اضطرنا ارتفاع مفاجئ في مياه نهر «تاكوارمبو» إلى أن نجرب (ونعاني بصبر) الضيافة البدائية المتاحة للمخزن العام. هيأ لنا صاحب المخزن بعض الأسرة التي تصرُّ في غرفة مستودع كبيرة تعج بالبراميل وأكوام الريش. تمددنا، ولكن منعتنا من النوم حتى الفجر عربدة جارٍ لا نراه، كان يناوب بين سباب غير مفهوم وغناء نتف من «الميلونغات»، أو بالأحرى، نتف من الميلونغا نفسها. وكما هو متوقع، فقد عزونا هذا الاضطراب المتواصل إلى قوة شراب المحل

Twitter: @ketab_n

اللاذع... في الفجر، كان الرجل يتمدد ميتاً في الممر. لقد خدعتنا بحة صوته، إذ كان فتى شاباً. في هيجانه، انزلقت من حزام بنطاله العريض عدة قطع نقدية، والتمع مخروط محيطه بحجم مكعب النرد. حاول فتى صغير التقاط المخروط، ولكن بلا طائل. لكن رجلاً كامل الرجولة تمكن من التقاطه بصعوبة. حملته بضع دقائق في راحة يدي؛ أتذكر أن وزنه كان لا يطاق، وحتى بعد أن أخذه مني أحدهم، بقي يخالطني إحساس بثقل مزعج. أتذكر أيضاً الدائرة المضبوطة التي وسمها على لحمي. وقد تركني هذا الدليل على وجود شيء بهذا الصغر وهذا الثقل في الوقت نفسه أرزح تحت إحساس غير سار بالمقت والخوف. اقترح ريفي أن يُرمى به إلى النهر الجاري. وحصل عليه أموريم بعدة بيزوات. لم يعرف أحد أي شيء عن الميت سوى أنه «جاء من الحدود». وتلك المخروطات الصغيرة والبالغة الثقل، المصنوعة من المعدن ولا وجود لها في هذا العالم، هي صور الألوهية في بعض ديانات إطلون.

أختتم هنا الجزء الشخصي من سردي. ويكمن ما يتبقى في ذاكرة قرائي (إن لم يكن في أملهم أو خوفهم). ويكفي أن نتذكر، أو نذكر، الأحداث اللاحقة، بشجاعة كلمات بسيطة تثريها أو توسعها ذاكرة الجمهور العام المقعرة.

عام 1944، كشف باحث من ناشفيل الأمريكية عن المجلدات الأربعين من «موسوعة إطلون الأولى» في مكتبة ممفيس. وحتى هذا اليوم هناك اختلاف ما إذا كان الاكتشاف عرضياً أم متفقاً عليه بإشراف

Twitter: @ketab_n

موجهي أوربس تيرتيوس السديميين. والاحتمال الثاني مرجح جداً. وقد تم إلغاء بعض السمات غير القابلة للتصديق في المجلد الحادي عشر (مثل تكاثر الهرونير) أو إسكاتها في نسخة ممفيس. ومن المعقول أن نفترض أن تلك الحذوف تماشي خطة إطلاق عالم لا يتناقض كثيراً مع العالم الواقعي. وستكمِّل هذا خطة انتشار الأشياء من إطلون في مختلف أرجاء العالم[1]... على أية حال، أحدثت الصحافة الدولية ضجيجاً كبيراً حول هذه «اللقية». فملأت العالم كتب مدرسية، وقطوف، ومختصرات، وترجمات أدبية، ونشرات مرخص بها، وطبعات مسروقة، «لرائعة الإنسانية الكبرى»، صدرت وما زالت تصدر إلى العالم. وعلى الفور تقريباً، «غار» الواقع وتلاشى في أكثر من نقطة واحدة. والحقيقة أنه أراد أن يغور. قبل عشر سنين فقط، كان أي نظام تناظري مهما يكن مظهر ترتيبه – المادية الجدلية، أو النزعة المضادة للسامية، أو النازية– كافياً ليفتن العالم. فكيف لا يسقط العالم تحت سحر إطلون؟ وكيف لا يخضع لهذا الدليل المضبوط والمترامي على كوكب منظم؟ وإنه لمن العبث الرد بأن الواقع منظم أيضاً. قد يكون منظماً فعلاً، لكنه يتوافق مع القوانين الإلهية (اقرأ= القوانين اللاإنسانية) التي لن نتمكن قط من الإلمام بها. وقد يكون إطلون متاهةً، لكنها متاهة اصطنعها البشر، متاهة محكومة بأن يكشف لغزها البشر.

وقد دمّر الاتصال بإطلون، وعادات إطلون، هذا العالم. تنسى

(1) تبقى بالطبع مشكلة «المادة» التي صيغت منها هذه الأشياء.

Twitter: @ketab_n

البشرية، مأخوذة بانضباطه، وتواصل نسيانها أنه انضباط للاعبي الشطرنج، لا الزوايا. صارت «اللغة البدائية» التخمينية لإطلون تشق طريقها إلى المدارس. صارت دراسة تاريخه المتناسق، المليء بالقصص المحركة، تلغي التاريخ الذي كان يسود في أيام طفولتي، صار الماضي المتخيل، في جميع ذاكرات بني البشر، يحتل مكان ذلك الماضي الآخر، وهو ما لا نعرف عنه شيئاً على وجه اليقين- حتى ولا كونه زائفاً. تمت مراجعة علم النميات، والصيدلة، والآثار. وأتفهم أن علم الأحياء والرياضيات ما زالا ينتظران تجسدهما القادم... غيّرت وجهَ العالم سلالة مبعثرة من المتوحدين، وهي تستمر في مهمتها. وإذا لم يخطئني التوقع، فبعد مائة سنة من الآن، سيكتشف شخص ما الأجزاء المائة من «موسوعة إطلون الثانية».

حينئذٍ، ستختفي عن الكوكب الإنجليزية والفرنسية والإسبانية. سيكون هذا العالم هو إطلون نفسه. ولن يُحدثَ معي هذا فرقاً كبيراً؛ ففي أيام راحتي الهادئة في فندق «أندروغيه»، أستمر في مراجعة ترجمة غير حاسمة بأسلوب كويفيدو لعمل توماس براون «الإناء الدفين»، لا أفكر بنشرها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الدنو من المعتصم

كتب فيليب غيدالا أن رواية «الدنو من المعتصم» لمحامي بومباي مير بهادُر علي هي «مزيج غير مريح من تلك القصائد الأمثولية الإسلامية التي نادراً ما تفشل في إثارة مترجمها، وتلك الروايات البوليسية التي تتخطى بالضرورة جون هـ. واطسن، وتنطبق تماماً على رعب الحياة في بيوت نزل برايتون التي لا تعاب». وكان السيد سيسيل روبرتس قد انتقد من قبل كتاب بهادر «على التأثير المزدوج وغير المحتمل لولكي كولنز والشاعر الفارسي الشهير من القرن الثاني عشر فريد الدين العطار». وهذه ملاحظة هادئة بما يكفي يعيدها غيدالا دون تغيير مهم، ولكن بنبرة غاضبة. ومن حيث الجوهر، يتوافق رأي الناقدين: فكلاهما يشير إلى آليات القصة البوليسية للرواية، وكلاهما يتحدث عن التيار الصوفي فيها. وقد يدفعنا هذا التهجين إلى أن نتخيل شبهاً مع تشسترتن؛ لكننا سرعان ما نرى أنه لا وجود لمثل هذا الشبه.

ظهرت الطبعة الأولى من «الدنو من المعتصم» في بومباي في أواخر العام 1932. وكان الورق المستعمل في طباعتها هو ورق الجرائد؛ وكان غلافها يعلن للقارئ أنها «أول رواية بوليسية يكتبها مواطن من أهل

Twitter: @ketab_n

مدينة بومباي». وخلال شهور قليلة، أقبل القراء على شراء أربع طبعات منها، كل طبعة بألف نسخة. وأمطرتها الصحف بوابل الإطراء، «مجلة بومباي الفصلية»، و«بومباي غازيت»، و«مجلة كالكوتا»، و«مجلة هندوستان»، في الله آباد، و«إنجليزي كالكوتا». بعد ذلك أصدر بهادر طبعة مصورة من الكتاب، عنونها هذه المرة: «محادثة مع رجل اسمه المعتصم»، وأضاف عنواناً فرعياً أنيقاً هو «لعبة بالمرايا المتحركة». وهذه الطبعة هي التي أعاد إنتاجها وتحريرها من جديد في لندن فكتور غولانتش، مع مقدمة بقلم دوروثي ل. سايرز، وحذفٍ، قد يكون رحيماً، للمصورات. ولديَّ منها نسخة ماثلة أمامي. ولم أفلح في العثور على الطبعة الأولى، التي أشك كثيراً في أنها أفضل. يؤيدني في هذا الحكم الأخير ملحق يوجز الفرق الجوهري بين النشرة البدائية للعام 1932 وطبعة 1934. وقبل معاينة الكتاب، ومناقشة مزاياه، لعل الأحرى بي أن أشير سريعاً إلى مخطط الرواية العام.

بطلها المنظور، الذي لن نعرف اسمه أبداً، هو طالب يدرس القانون في بومباي. وقد أعلن عدم إيمانه، بطريقة تجديفية، بالإسلام، ملة آبائه وأجداده. لكنه في الليلة العاشرة من شهر محرم، وفق التقويم القمري، يجد نفسه في خضم معركة شوارع بين المسلمين والهندوس. كانت ليلة مفعمة بالدفوف والابتهالات: اخترق موكب المسلمين ذو المظلات الورقية الكبيرة حشد الخصوم؛ فانهال من الأعلى الطابوق الذي رماه الهندوس، وأنشب أحدهم خنجره في بطن آخر، وقُتِلَ شخص

Twitter: @ketab_n

ما – مسلم؟ هندوسي؟– فوطئته الأقدام. ثلاثة آلاف رجل يخوضون معركة – العصي ضد المسدس، والقذارة ضد اللعنة، والله الواحد ضد الأرباب الكثيرة. بانشداه، يدخل طالب القانون المنفتح الذهن في الشجار. وبيدين يائستين، يقتل (أو يظن أنه يقتل) هندوسياً. تتدخل شرطة السركار، هادرة، على ظهور الجياد، شبه نائمة، بسياطها الجلدية اللاسعة. ومن تحت حوافر الجياد تقريباً، يفلت طالب القانون، هارباً نحو أبعد ضواحي المدينة. يعبر خطي سكة قطار، أو ربما سكة واحدة مرتين. يتسلق جدار حديقة مهملة متشابكة، ينتصب خلفها برج دائري. يندفع سرب أعجف وشرير من الكلاب الملونة بلون القمر من خلف الأكمة السوداء. ناشداً نجاته، يلتجئ طالب القانون إلى البرج. يرتقي سلماً من حديد – بعض درجاته مفقودة– وما إن يصل إلى السقف، الذي تتوسطه فجوة فاحمة السواد، حتى يواجه رجلاً قذراً جاثماً في ضوء القمر، وهو يدلق بولته. يفضي له هذا الرجل أن حرفته هي أن يسرق الأسنان الذهبية من الجثث المكفنة بالبياض التي يودعها البارسيون في هذا البرج. يتحدث أيضاً عن قضايا أخرى لا تقل نذالة، ويذكر أنه قضى أربع عشرة ليلة منذ أن تطهر آخر مرة بروث البقر. يتكلم بكراهية واضحة عن بعض لصوص الخيول في قوجرات، «أكلة الكلاب والسحالي، الأوسخ منا نحن الاثنين». تبدأ السماء بالإشراق؛ وتنكشف في الهواء حلقة نازلة من الصقور السمان. وإذ يستبد التعب بطالب القانون، يخر نائماً. وحين يصحو، يجد الشمس عالية، واللص

Twitter: @ketab_n

وقد اختفى. واختفت معه أيضاً بعض السجائر من «تريكنوبولس»، وبضع روبيات فضية. وإزاء التهديد الذي حملته له الليلة الفائتة، يقرر طالب القانون أن يضيع في أرجاء الهند. يفكر كيف أظهر قدرته على قتل عابد أوثان، لكنه ما زال غير قادر على أن يعرف معرفة اليقين ما إذا كان المسلم أكثر تسويغاً في معتقداته من الهندوسي. لا يستطيع أن ينزع من باله اسم «قوجرات»، ولا اسم «ملكا- سانسي» (تلك المرأة من طائفة اللصوص) في بالانبور، التي كانت الهدف المفضل للعنات سلاب الجثث وموضوع كراهيته. يفكر أن حقد إنسان نذل حتى هذه الدرجة أمر لا يقل منزلة عن المديح. ولذلك يقرر - من دون أمل كبير- أن يبحث عن هذه المرأة: «ملكا - سانسي». وبعد تأدية صلاة قصيرة، يشرع في سفرة بعيدة بتراخٍ مطمئن. هكذا ينتهي الفصل الثاني من الكتاب.

من المستحيل تتبع آثار مغامرات الفصول التسعة عشر الباقية. وهناك تكاثر مدوخ للشخصيات الدرامية، دعك عن السيرة التي يبدو أنها تستغرق حركات الروح الإنسانية (بدءاً من الشعور بالعار حتى التأمل الرياضي) أو التجوال الذي يحيط بجغرافية هندوستان الشاسعة. فالقصة التي بدأت في بومباي تستمر في منخفضات بالانبور، وتتوقف ليلة ونهاراً عند البوابات الحجرية في بيكانر، وتروي قصة موت فلكي أعمى في وحل بينارس، يتآمر في قصر كاثماندو المتعدد الأشكال، ويصلي ويركع - وسط النتانة الوخيمة في كالكوتا- في بازار مانشوا، ويراقب

Twitter: @ketab_n

النهار يولد في البحر من مكتب في مدراس، ويراقب المساء وهو يموت في البحر من شرفة في ولاية ترافانكور، ويتردد ويقتل عند إندابور ويغلق مدار فراسخه وسنينه في بومباي نفسها، على بعد خطوات من حديقة الكلاب الملونة بلون القمر.

أما الحبكة نفسها فعلى النحو الآتي: يقع رجل (هو طالب القانون الجاحد، والهارب الذي رأيناه) في أيدي أناس أدنياء، أراذل، ويكيف نفسه معهم، بنوع من الاحتجاج على العار. وفجأة – بالصدمة العجيبة التي استشعرها روبنسن كروزو حين رأى آثار أقدام بشرية على الرمال– يدرك طالب القانون بعض التلطيف للشر: لحظة نعومة، أو ارتقاء، أو صمت، لدى واحد من الرجال المقيتين. «كأنما تكلم أكثر المتكلمين تعقيداً». يعرف أن التعيس الذي تحدث معه غير قادر على تلك اللياقة العابرة، وهكذا يفترض طالب القانون أن الرجل الرذيل أمامه هو انعكاس لصديق، أو صديق صديق. وحين يعيد التفكير بالمشكلة، يصل إلى نتيجة غامضة: **في مكان ما في العالم هناك إنسان، يصدر عنه هذا الوضوح والسطوع؛ في مكان ما في العالم هناك إنسان يمثل هذا الوضوح.** فيقرر طالب القانون أن يكرس حياته للبحث عن ذلك الإنسان.

هكذا نستطيع أن نتلمس خطة الكتاب العامة: بحث نهم عن نفس ما من خلال التماعات أو انعكاسات رهيفة تركتها هذه النفس في الآخرين – في البداية، أثر طفيف لتشبيه أو كلمة، وفي النهاية بريق ساطع متنوع يتزايد، لعقل وخيال وخير. كلما استنطق طالب القانون

Twitter: @ketab_n

الرجال الذين عرفوا المعتصم عن قرب، زاد نصيبهم من الألوهية، وإن كان من الواضح أنهم ليسوا سوى مرايا. ويمكن استخدام صيغة التقنية الرياضية هنا؛ فرواية بهادر المعبأة بقوة هي متوالية صاعدة، تكمن الغاية النهائية منها في هجس «رجل اسمه المعتصم». السابق المباشر للمعتصم هو بائع كتب فارسي دمث وسعيد بإفراط. والسابق المباشر لهذا البائع هو قديس... بعد كل هذه السنين يصل طالب القانون إلى قاعة «في نهايتها باب يفضي إلى ممر تتدلى عليه ستارة حصيرة من خرز؛ ومن ورائها يشع نور ساطع». يصفق طالب القانون يديه مرة، مرتين، وينادي باسم المعتصم. فيأتي صوت رجل – صوت المعتصم الذي لا يُصدق– يدعوه إلى الدخول. يزيح طالب القانون الستارة ويخطو إلى الأمام. وتنتهي الرواية.

ما لم أكن مخدوعاً، فإن التنفيذ الناجح لمثل هذه الحبكة يفرض إلزامين على الكاتب: الأول ابتكار تنوع من العلامات النبوئية؛ والثاني ألا يسمح للبطل الذي تصوره هذه العلامات أن يتحول إلى مجرد تخيل أو سراب. وقد أوفى بهادر بالإلزام الأول؛ لكني لا أدري إلى أية درجة حقق الإلزام الثاني. بعبارة أخرى، ينبغي أن يعطينا هذا المعتصم، الذي لا يُرى ولا يُسمع، انطباعاً بأنه شخص حقيقي فعلي، وليس مجرد خليط من التفضيلات الرثة. في نسخة العام 1932، تندر الملاحظات الخارقة. «فرجل اسمه المعتصم» له لمسته الرمزية، لكنه لا يفتقر إلى قسمات شخصية خصوصية أيضاً. لكن هذا السلوك الأدبي الجيد، لسوء الحظ،

Twitter: @ketab_n

لم يُتبع في الطبعة الثانية. ففي طبعة 1934، الماثلة أمامي، تغوص الرواية في الأمثولة: فالمعتصم هو رمز على الله، وتطوافات البطل المفصلة هي على نحو ما مواصلة النفس في ارتقائها إلى الكثرة الصوفية. وهناك تفاصيل مؤلمة: يتكلم يهودي زنجي من كوتشن عن المعتصم فيصفه بأنه أسود البشرة؛ ويقول مسيحي عنه إنه يقف في أعلى برج مبسوط الذراعين؛ ويتذكره راهب لامي أحمر جالساً «مثل صورة الحيوان البري الذي شكّلتُه وتعبدت له في الدير في تاشيلهومبو». المقصود من جميع هذه الأقوال أن توحي بإله واحد أحد، يتكيف مع الاختلافات الإنسانية. وفي تقديري، فإن الفكرة ليست بالمثيرة جداً. على أنني لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن فكرة أخرى؛ فكرة أن كلي القدرة يبحث أيضاً عن شخص ما، وأن هذا «الشخص ما» يبحث عن شخص ما آخر أسمى (أو أكثر ضرورة، وإن كان مساوياً له)، وهكذا حتى النهاية – أو ربما كان الأفضل القول– حتى عدم انتهاء الزمان. أو ربما دورياً. والمعتصم (وهو اسم ثامن الخلفاء العباسيين، الذي انتصر في ثمان حروب، وأنجب ثمانية ذكور وثماني بنات، وترك وراءه ثمانية آلاف عبد، وحكم على امتداد ثمان سنوات وثمانية شهور وثمانية أيام) يعني في أصله الاشتقاقي «الباحث عن ملجأ يحميه». في طبعة 1932 من الرواية، يبرر كون موضوع البحث هو نفسه باحث تبريراً ذكياً صعوبة العثور على المعتصم. وفي طبعة 1934، تفضي هذه الواقعة إلى اللاهوت الاستثنائي الذي ذكرته. وكما رأينا، فإن مير بهادر علي غير قادر على تفادي أكثر

Twitter: @ketab_n

إغراءات الفن شعبية، إغراء أن تكون عبقرياً.

لقد أعدت قراءة ما كتبته تواً، وأخشى أنني لم أكشف بما يكفي عن فضائل الكتاب. فهو ينطوي على تعبيرات في غاية التحضر: من ذلك مثلاً، الحجة الواردة في الفصل التاسع عشر التي يشعر فيها طالب القانون (والقارئ معه) أن أحد المشاركين في الحوار هو صديق للمعتصم، ولا يفند الرجل أمثال خصمه «حتى لا يشمت بهزيمة الآخر».

* * *

من المفهوم أنه ينبغي للكتاب المعاصر أن يستقي من عمل قديم، ما دام كل شخص، كما لاحظ الدكتور جونسن، لا يود أن يكون مديناً لمعاصريه. والتوافقات المتكررة، وإن لم تكن بالمهمة، بين عوليس جويس وأوديسة هوميروس تستمر (ولا أعرف لماذا) في استقطاب الإعجاب الطائش لدى نقاد الأدب. أما التوافقات بين رواية بهادر والعمل الكلاسيكي «منطق الطير» لفريد الدين العطار فتقابل بمديح لا يقل عن ذلك غموضاً في لندن، وحتى في الله آباد وكالكوتا. لكن رواية بهادر تدين لأعمال أخرى أيضاً. وقد وثق أحد الباحثين عدداً من المشابهات في المشهد الأول من الرواية مع عناصر من قصة كبلنغ «فوق سور المدينة». وأقر بها بهادر، لكنه زعم أن من الشاذ جداً ألا يتوافق وصفان مختلفان لليلة العاشر من محرم على نحو ما... ويستذكر إليوت، بعدالة أكبر، الأناشيد السبعين في الأمثولة غير المكتملة «الملكة الجميلة» لسبنسر، حيث لا تظهر البطلة، غلوريانا، مرة واحدة، وهو حذف سبق

Twitter: @ketab_n

أن انتقد ريتشارد وليم تشيرتش العمل بسببه (سبنسر، 1879). وببالغ التواضع، أود أن أذكر سلفاً بعيداً محتملاً، ألا وهو القبالي إسحاق لوريا، الذي أظهر في القدس في القرن السادس عشر أن روح أحد الأسلاف أو المعلمين يمكن أن تدخل في روح شقي تعس لتريحه أو تعلمه. ويطلق على هذا النوع من التناسخ اسم «عِبّور»[1].

(1) لقد أشرت في سياق هذه المقالة إلى «منطق الطير» للمتصوف الفارسي فريد الدين أبي طالب محمد بن إبراهيم العطار، الذي قتله جيش المغول بقيادة طولوي، ابن جنكيزخان، حينما حاصروا نيسابور. وقد لا يخلو إيجاز القصيدة من فائدة. تقع ريشة من أجمل ريش ملك الطيور، «السيمُرْغ»، في وسط الصين؛ فتقرر الطيور الأخرى، خائفة من الفوضى، أن تبحث عن ملك الطيور. يعرفون أن اسم ملكهم يعني «الثلاثين طائراً» [في الفارسية هناك جناس بين «سيمرغ»: العنقاء، و«سي مُرْغ»: ثلاثين طائراً – م]؛ يعرفون أن قصره عند جبل قاف، الذي يحيط بالأرض. فتشرع الطيور في مغامرة لا تكاد تتناهى. تعبر سبعة وديان وسبعة بحار؛ يدعى الوادي ما قبل الأخير (وادي الحيرة)، والأخير (وادي الفناء). يتخلى بعض المسافرين عن الرحلة، ويهلك آخرون. لكن ثلاثين طائراً منها، طهرها عملها، تحط عند جبل السيمرغ. وحين ينظرون إلى الملك أخيراً، يكتشفون أنهم هم السيمرغ، وأن السيمرغ هو كل واحد منهم، وجميعهم. (وعلى النحو نفسه يعلق أفلوطين في «التاسوعات» (5، 8، 4) حول الامتداد الفردوسي لمبدأ وحدة الهوية قائلاً: «كل شيء في عالم العقل يوجد في كل مكان. وكل شيء هو كل الأشياء. الشمس هي النجوم كلها، وكل نجم هو النجوم كلها والشمس»). وقد ترجم غارسين دي تاسي «منطق الطير» إلى الفرنسية، وترجمه إدوارد فتزجيرالد إلى الإنجليزية، [وترجمه إلى العربية أحمد ناجي القيسي، بغداد، 1978، وبديع محمد جمعة، بيروت، 1979، م]، وقد رجعت في هذه المقالة إلى ترجمة ريتشارد بيرتن من «ألف ليلة وليلة»، ودراسة مرغريت سمث المعنونة: المتصوفون الفرس: العطار (1932).

وليست التوازيات بين القصيدة ورواية بهادر علي بالمبالغ فيها. ففي الفصل العشرين، ترد كلمات قليلة ينسبها بائع الكتب الفارسي إلى المعتصم وربما تكون توسيعاً للكلمات التي نطق بها البطل؛ وقد تشير مشابهات غامضة أخرى إلى وحدة هوية =

Twitter: @ketab_n

= الباحث والمبحوث عنه، كما أنها يمكن أن تشير إلى أن المبحوث عنه كان قد أثّر في الباحث أصلاً. ويوحي فصل آخر أن المعتصم هو «الهندوسي» الذي يعتقد طالب القانون أنه قتله.

Twitter: @ketab_n

بيير مينار، مؤلف «دون كيخوتة»

إلى سيلفينا أوكامبو

يمكن بسهولة وإيجاز تعداد الأعمال المنظورة التي خلّفها هذا الروائي؛ وبالتالي لا يمكن التسامح مع النصوص المحذوفة والإضافات التي خلّدتها المدام هنري باشليه في دليل خادع لم تبالِ إحدى الصحف، التي لا تكتم ميولها البروتستانتية، بابتلاء قرائها المعذبين به – وإن كانوا قليلي العدد، وكالفينيين (إن لم يكونوا ماسونيين، وحتى مختونين). وقد تلقى أصدقاء مينار المخلصون هذا الدليل بحذر، بل بشيء من الحزن. لكأننا اجتمعنا أمس فقط أمام رخامة ضريحه، وأشجار السرو الموحشة، وكان «الخطأ» يحاول أن يكدر ذكراه... ولا ريب أن إجراء تصحيح وجيز أصبح أمراً لا مناص منه.

أعي تماماً أن من السهل جداً تحدي مرجعيتي الضعيفة. مع ذلك، أتمنى ألا أُمنعَ من ذكر شهادتين مهمتين. فقد أبدت البارونة دي باكور (التي حظيتُ بشرف التعرف على الشاعر الفقيد في «جمعاتها» التي لا تُنسى) موافقتها على نشر هذه السطور. كما أن الكونتيسة باغنوريو، وهي واحدة من أندر وأفضل الشخصيات المثقفة في إمارة موناكو

Twitter: @ketab_n

(والآن في بطسبرغ في بنسلفانيا، بحكم زواجها أخيراً من المحسن الدولي سايمون كاوتش - وهو رجل يحزنني القول إنه تعرض للافتراء على أيدي ضحايا صنائعه الخالية من المنفعة الشخصية) ضحَّتْ من أجل «الحقيقة والموت» (وهذه كلماتها هي) بجلال التحفظ الذي يميزها، ومنحتني موافقتها أيضاً، في رسالة مفتوحة نشرتها صحيفة (لوكس). وأعتقد أن هاتين الشهادتين كافيتان.

لقد قلت إن الإنتاج المنظور لقلم مينار يمكن تعداده بسهولة. وبعد أن تفحصتُ ملفاته الشخصية بعناية بالغة، تحققت أن متن عمله يتكون من القطع الآتية:

أ- سونيتة رمزية ظهرت مرتين (ببعض التنويعات) في مجلة La Conque (في عددي آذار وتشرين الثاني 1899).

ب- مقالة عن إمكان إنشاء معجم شعري لمفاهيم ليست بمترادفة ولا تعريضية للمفاهيم التي تشكل لغتنا اليومية، «بل موضوعات مثالية يخلقها التوافق العام ويراد لها في الجوهر أن تلبي الحاجات الشعرية» (نيم، 1901).

ج- مقالة عن «بعض الارتباطات أو القرابات» بين أفكار ديكارت ولايبنتز وجون ولكنز (نيم، 1903).

د - مقالة عن «الكليات الشخصية» لدى لايبنتز (نيم، 1904).

هـ- مقالة عن «الفنون الكبرى العامة» لدى رامون لول (نيم، 1906).

Twitter: @ketab_n

و- ترجمة، بمقدمة وتعليقات، لكتاب روي لوبيز دي سيغورا:
Libro de la invecion libral y arte del juego del axedrez
(Paris, 1907)

ز- مسودات مقال عن المنطق الرمزي لدى جورج بول.

ح- دراسة عن القوانين الوزنية الأساسية للنثر الفرنسي، موضحة بأمثلة مأخوذة من سان سيمون (مجلة اللغات الرومانسية، مونتبليه، تشرين الثاني، 1909).

ط- رد على لوك دورتان (الذي أنكر وجود مثل هذه القوانين)، موضحاً بأمثلة مأخوذة من لوك دورتان (مجلة اللغات الرومانسية، مونتبليه، كانون الأول، 1909).

ي- مخطوطة ترجمة كتاب كويفيدو (Aguja de navegar cultos)، عنوانها (La boussole des precieux).

ك- مقدمة لدليل معرض الصور الحجرية عند كارولس هوركاد (نيم، 1914).

ل- كتابه «مشكلات مشكلة» (باريس، 1917)، الذي ينظم في ترتيب زمني مختلف الحلول للمشكلة الشهيرة حول أخيل والسلحفاة. وقد ظهرت طبعتان للكتاب حتى الآن؛ أضافت الثانية مقطعاً حول نصيحة لايبنتز (لا تخش السلحفاة، يا سيد)، وتحتوي على مراجعات للفصلين المكرسين لراسل وديكارت.

م- تحليل عنيد «للعادات التركيبية» لدى توليه (ن. ر. ف. آذار،

Twitter: @ketab_n

1921). (وأتذكر أن مينار كان يؤكد أن الرقابة والمديح هما عمليتان عاطفيتان لا علاقة لهما بالنقد).

ن- نقل قصيدة بول فاليري «المقبرة البحرية» إلى الأوزان الإسكندرية (ن. ر. ف. كانون الثاني، 1928).

• طعن في بول فاليري في «أوراق لتخطي الواقع» لجاك ريبول. (وينبغي القول بين قوسين إن هذا الطعن يشكل النقيض الدقيق لرأي مينار الحقيقي في فاليري. وقد فهم فاليري هذا، فلم تتعرض صداقة الرجلين للخطر قط).

س- «تعريف» بالكونتيسة دي باغنوريو في «الكتاب المنتصر»، (والعبارة لمشارك آخر في الكتاب هو غابرييل دانونزيو) الذي تطبعه كل سنة تلك السيدة لتصحيح التزييفات الضرورية للصحافة ولكي تقدم «للعالم ولإيطاليا» صورة أصيلة عن شخصها، الذي يتعرض (بسبب جمالها ونشاطاتها) للتأويلات المغلوطة أو المتسرعة.

ع- دورة من السونيتات الجميلة المهداة للبارونة تدين بجمالها إلى نظام التنقيط[1].

هذه هي الآثار الكاملة (دون أن نحذف سوى بعض السونيتات الغامضة التي كتبها لألبوم تذكارات المدام هنري باشليه المضياف أو

(1) تدرج المدام هنري باشليه أيضاً ترجمة حرفية لترجمة كويفيدو الحرفية لكتاب القديس فرانسيس دي سال (مدخل إلى حياة مكرسة). ولكن لا أثر في مكتبة بيير مينار لمثل هذا العمل. وربما أساءت فهم نكتة أطلقها مينار.

Twitter: @ketab_n

الطماع) التي تشكل الجزء المنظور من أعمال مينار حسب التسلسل الزمني. أما الآن، فأنتقل إلى الإنتاج الآخر، الدفين، البطولي بلا انتهاء، الذي لا نظير له، ويجب أن يظل، بحكم محدودية إمكانات الإنسان، بلا حصر. يتكون هذا العمل، الذي ربما كان يمثل أهم الكتابات في عصرنا، من الفصل التاسع والفصل الثامن والثلاثين من القسم الأول من «دون كيخوتة»، وشذرة من الفصل الثاني والعشرين. وأنا أدرك أن مثل هذا التأكيد يبدو عبثياً؛ لكن تسويغ هذه «العبثية» هو الموضوع الرئيس لهذه الملاحظة[1].

أوحى بهذه المهمة نصان لا يتساويان في القيمة. أحدهما هو الشذرة اللغوية التي كتبها نوفاليس – ولكي أكون دقيقاً، فهي الرقم 2005، من طبعة دريسدن– التي توجز فكرة «التماهي الكامل» مع مؤلف معين. والثاني هو أحد تلك الكتب الطفيلية التي تضع المسيح على جادة عريضة، أو هاملت في كانيبر، أو دون كيخوتة في وول ستريت. ومثل كل مثقف عنده ذوق رفيع، كان مينار يمقت هذه المساخر العقيمة التي يقول إنها لا تصلح لشيء إلا إثارة البهجة العامية في المفارقة التاريخية أو (وذلك أسوأ) لإغرائنا بالفكرة الأولية التي ترى أن جميع الأزمنة أو الأمكنة متماثلة أو مختلفة. وقد فكّر أن ما هو أكثر أهمية، وإن يكن قد تم تنفيذه على نحو متناقض وسطحي، إنما يكمن في تجريب مخطط

(1) كانت لديَّ نية أخرى في رسم صورة شخصية لبيير مينار. ولكن أنى لي أن أجرؤ على مجاراة الصفحات الذهبية التي أخبرتني البارونة أنها تهيئها أو القلم الرهيف والدقيق لكارولس هوكاد؟

Twitter: @ketab_n

دوديه الشهير، في أن يجمع، في صورة واحدة، بين «طارطارين»، النبيل الشريف، وخادمه التابع... والذين يغمزون مينار بأنه كرّس حياته لكتابة «دون كيخوتة» معاصرة، إنما يفترون على ذكراه المشرقة. فهو لم يرد أن يؤلف «دون كيخوتة» أخرى، فهذه مهمة بالغة السهولة، بل أراد كتابة «دون كيخوتة» نفسها. ولا يحتاج المرء إلى أن يضيف أن هدفه لم يكن إنتاج وصف آلي للأصل؛ لأنه لم ينوِ قطُّ أن ينسخه. بل كان طموحه الرائع يتمثل في كتابة صفحات تتفق كلمة فكلمة، وسطراً فسطراً مع صفحات ميغيل دي سرفانتس.

لقد كتب لي من بايون في 30 كانون الأول 1934: «إن هدفي مدهش وحسب. لا يقل الهدف النهائي للبرهان اللاهوتي أو الميتافيزيقي –العالم الخارجي، المصادفة، الأشكال الكلية– غائيةً ولا يزيد فرادةً عن الرواية التي أمليها. يكمن الفرق الوحيد في أن الفلاسفة ينشرون مجلدات ممتعة تحتوي على المراحل الوسطى لأعمالهم، في حين أنني ملزم بتخطي هذه المراحل». وفعلاً ما من مسودة واحدة تشهد على هذا العمل الذي استغرق السنين الطوال.

في البداية، كان ينبغي لمنهج مينار أن يكون بسيطاً نسبياً: أن يتعلم الإسبانية جيداً، ويعود إلى اعتناق العقيدة الكاثوليكية، ويحارب ضد المور والأتراك، وينسى تاريخ أوربا بين عام 1602 وعام 1918، ثم أن يكون ميغيل سرفانتس. وقد درس بيير مينار هذا الإجراء (وأعرف أنه تمكن من إتقان إسبانية القرن السابع عشر) لكنه أهملها لكونها سهلة جداً. ولعل

Twitter: @ketab_n

القارئ يقول لكونها مستحيلة جداً. وأنا أتفق معه، لكن المهمة كانت مستحيلة منذ البدء، ومن بين جميع طرق تحقيقها المستحيلة، كان هذا الطريق أقلّها أهمية. فأن يكون المرء في القرن العشرين روائياً شعبياً من القرن السابع عشر بدا له انتقاصاً وزراية. بدا له أن يكون، بطريقة ما، سرفانتس ويتوصل إلى «دون كيخوتة» أقلَّ وعورةً (وبالتالي أقل أهمية) من الاستمرار في كونه بيير مينار ويتوصل إلى «دون كيخوتة» من خلال تجارب بيير مينار. (وبالمناسبة، فهذا الاعتقاد هو الذي دعاه إلى استبعاد المدخل الذي يتسم بطابع السيرة الذاتية من القسم الثاني من «دون كيخوتة». إذ كان تضمين هذا المدخل يعني خلق شخصية أخرى – سرفانتس. وكذلك تقديم «كيخوتة» من خلال منظور هذه الشخصية، وليس من خلال منظور بيير مينار. وبالطبع رفض مينار مثل هذا الحل السهل). وقد قرأتُ في موضع آخر من تلك الرسالة: «إن المهمة التي تصديتُ لها ليست صعبة في جوهرها. ولكي أُنجزها، ينبغي لي فقط أن أكون خالداً». هل لي أن أعترف أنني غالباً ما أتخيل أنه أكملها، وأنني أقرأ «دون كيخوتة» – بكامله– وكأن مينار هو الذي تصوره؟ قبل بضع ليالٍ، بينما كنت أقلّب أوراق الفصل السادس والعشرين – الذي لم يتناوله مينار قط– تعرفتُ على أسلوب صديقنا، بل كدتُ أسمع صوته في هذه العبارة الاستثنائية: «حوريات الأنهار، والصدى الموجع الرطب». وقد ذكّرني الجمع المؤثر بين صفتين، إحداهما أخلاقية والثانية طبيعية ببيت شعر لشكسبير كنا ناقشناه ذات أمسية:

Twitter: @ketab_n

«**حيث تركي حقود ومعمم..**».

ربما سأل القارئ: لماذا «دون كيخوتة» بالتحديد؟ فهذا التفضيل لو صدر عن كاتب ناطق بالإسبانية، لما كان متعذر الفهم، لكنه متعذر الفهم دون شك حين يصدر عن «رمزي» من نيم، كرس حياته في الجوهر من أجل بو، الذي أنجب بودلير، الذي أنجب مالارميه، الذي أنجب فاليري، الذي أنجب إدمون تيست. وتلقي الرسالة المذكورة أعلاه بعض الأضواء على هذه النقطة، إذ يوضح مينار قائلاً:

«إن «دون كيخوتة» تهمني بعمق، لكنها لا تبدو لي – كيف يمكنني القول؟– ضرورية. لا أستطيع أن أتخيل الكون من دون نفثة بو: «آه، **ضع في اعتبارك أن الحديقة مسحورة**» أو من دون «المركب السكران» أو «البحار القديم»، لكنني أعرف أنني أستطيع تخيله من دون «كيخوتة». (وأنا أتحدث بالطبع عن قدرتي الشخصية، وليس عن الأصداء التاريخية لهذه الأعمال). ودون كيخوتة عمل عرضي، «دون كيخوتة» ليس بضروري. أستطيع أن أتملى في كتابته، أستطيع أن أكتبه، دون ارتكاب حشو واحد. قرأته وأنا في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وربما قرأته من الغلاف إلى الغلاف، لا أستطيع أن أتذكر. ومنذ ذلك الحين، وأنا أعيد بعناية قراءة بعض فصوله، لا سيما تلك الفصول التي لن أحاول

Twitter: @ketab_n

تجربتها، على الأقل في اللحظة الحاضرة. كما أنني عاينتُ المقاطع البينية، والملاهي، والغلاطيات، والروايات النموذجية، و«مشاق بيرسلس وسيغيسموندا» المجهدة دون شك، و«رحلة بارناسوس» الشعرية.... ذكرى «دون كيخوتة» العامة لديَّ، وقد بسّطها النسيان وعدم الاكتراث، تكاد تتطابق مع صورة غامضة مهلهلة عن كتاب لم يُكتب بعد. وبحكم الصورة (التي لا ينكرها عليَّ إنسان ذو وعي) تغدو المشكلات التي أواجهها أكثر صعوبة بكثير من المشكلات التي واجهها سرفانتس. إذ لم يرفض سلفي المستسلم معونة القدر؛ فقد كان منهجه في تأليف كتابه الخالد يجري بمعونة الشيطان (a la diable) قليلاً، يدفعه خمود اللغة والخيال. أما أنا فقد تعاقدتُ مع الواجب الملغز في إعادة بناء عمله التلقائي حرفياً. ولعبة التوحد التي أوْديها محكومة بقانونين قطبيين. يسمح الأول أن أجرب تنوعات من طبيعة شكلية أو نفسية؛ ويلزمني الثاني بالتضحية بها من أجل النص «الأصلي» والبرهنة بما لا يقبل الدحض على هذا الإبطال... وفضلاً عن هذين القيدين الظاهرين أولاً، يوجد قيد آخر، متأصل في المشروع. فقد كان تأليف «دون كيخوتة» في بواكير القرن السابع عشر مهمة معقولة، وضرورية،

Twitter: @ketab_n

وربما لازمة، أما في بواكير القرن العشرين، فإنها مهمة تكاد تكون مستحيلة. إذ لم تنصرم ثلاثمائة سنة مشحونة بأكثر الأحداث تعقيداً على سبيل الاعتباط. ولسنا بحاجة إلى أن نذكر من هذه الأحداث سوى حدث واحد، هو «دون كيخوتة» نفسه».

برغم هذه العقبات الثلاث، فإن «دون كيخوتة» مينار المتشظية أكثر رهافةً من «دون كيخوتة» سرفانتس. فسرفانتس يجمع بسذاجة بين الواقع الريفي المتواضع في بلاده وبين فنطازيات الرومانس، بينما يختار مينار «كواقع» له بلاد كارمين خلال القرن الذي شهد معركة ليبانتو وتمثيليات لوب دي فيغا. يا للمسة المحلية الساخرة للاختيار الذي استوحاه موريس باريز أو رودريغيز لاريتا! مع ذلك، فإن مينار بطبيعية كاملة يتملص منهما. وفي عمله لا توجد جموع الغجر، ولا الغزاة، ولا المتصوفة، ولا أمثال فيليب الثاني، ولا الإعدامات. كان يهمل اللمسة المحلية أو يتجاوزها. ويؤثر هذا الاحتقار إلى معنى جديد «للرواية التاريخية». فهذا الاحتقار يدين «سالامبو»، دون فرصة في الاستئناف.

ولا يقل عن ذلك إدهاشاً أن نتأمل في الفصول المفردة على حدة. وكمثال على ذلك، دعونا ننظر في القسم الأول، الفصل 38، «الذي يعالج الخطاب المثير الذي ألقاه دون كيخوتة حول موضوع الأسلحة والحروف». وكما هو معروف، يمرر دون كيخوتة (مثل كويفيدو في فقرة مماثلة متأخرة من كتابه (la hora de todos) حكماً ضدّ الحروف

Twitter: @ketab_n

ولصالح الأسلحة). ولقد كان سرفانتس جندياً قديماً، وهو أمر يفسر مثل هذا الحكم. أما «دون كيخوتة» عند مينار، المعاصر لكتاب «خيانة الكتبة» وبرتراند راسل، فأنى له أن يكرر هذه السفسطات الضبابية! ترى مدام باشليه فيها خضوعاً عجيباً (ونموذجياً) من لدن المؤلف لنفسية البطل، بينما يرى فيها آخرون (يفتقرون إلى الفطانة) كتابة صوتية لدون كيخوتة، أما البارونة دي باكور فقد رأت فيها تأثير نيتشة. ولست أدري هل أجرؤ على إضافة تأويل رابع، لهذا التأويل الثالث، (الذي يبدو لي أنه لا يُدحض)، وهو تأويل يتوافق تماماً مع التواضع الذي يكاد يكون إلهياً عند بيير مينار: ألا وهو عادته الاستسلامية والساخرة في إنتاج الأفكار التي هي على النقيض تماماً لما يؤمن به فعلاً. (وينبغي أن نتذكر ذلك الطعن الذي وجهه ضد بول فاليري في المجلة السريالية الزائلة التي يحررها جاك ريبول). من الناحية اللغوية يتطابق نص سرفانتس ونص مينار، لكن النص الثاني أغنى بلا انتهاء. (ولعل منتقصيه يقولون إن أسلوبه أكثر غموضاً، لكن الغموض هو الإثراء). ومن الكاشف أن نقارن نص سرفانتس بنص مينار. على سبيل المثال، كتب سرفانتس ما يأتي (القسم الأول، الفصل التاسع):

«الحقيقة، التي يمثل التاريخ أُمّها، والتي هي خصم الزمن، ومستودع الأفعال، وشهادة الماضي، ومثال الحاضر وعبرته، والتحذير للمستقبل».

إن تعداد الصفات، المكتوب في القرن السابع عشر، وقد كتبه «إنسان عادي عبقري»، أعني ميغيل سرفانتس، هو مجرد إطراء بلاغي للتاريخ.

Twitter: @ketab_n

أما مينار من ناحية أخرى فيقول:

«الحقيقة، التي يمثل التاريخ أُمّها، والتي هي خصم الزمن، ومستودع الأفعال، وشهادة الماضي، ومثال الحاضر وعبرته، والتحذير للمستقبل».

التاريخ، أمُّ الحقيقة، تبدو الفكرة صاعقة فعلاً. فمينار، المعاصر لوليم جيمز، لا يعرف التاريخ بأنه نبشٌ في الواقع، بل هو أصله. والحقيقة التاريخية، عنده، ليست هي ما حدث؛ بل ما نظن أنه حدث. والعبارات الأخيرة: «**مثال الحاضر وعبرته، والتحذير للمستقبل**» هي عبارات براغماتية على نحو وقح.

وعلى غرار ذلك لا تقل المقابلة بين الأسلوبين عنفواناً. فالأسلوب العتيق عند مينار – وهو في التحليل الأخير أجنبي على اللغة– يعاني من بعض التكلف. أما أسلوب سلفه فليس كذلك، لأنه يطوع إسبانية عصره الاعتيادية بمنتهى السلاسة.

ولا يوجد تمرين عقلي إلا وهو عديم الفائدة في نهاية المطاف. يكون المذهب الفلسفي، في البداية، وصفاً حقيقياً للكون في الظاهر؛ لكنه يغدو بمرور السنين مجرد فصل في كتاب – إن لم نقل مجرد مقطع أو اسم علم– حول تاريخ الفلسفة. في الأدب، يبرز هذا التقادم ويتضح. وقد ذكر لي مينار إن «دون كيخوتة» كان في البداية كتاباً بارزاً ومحل إجماع؛ أما الآن فهو مجرد مناسبة لتناول الأنخاب الوطنية، والعجرفة النحوية، والطبعات الفاخرة الفاحشة. والمجد صورة، ربما تكون أسوأ

Twitter: @ketab_n

الصور، من سوء الفهم.

لا تحتوي المحاججات العدمية على شيء جديد، لكن الاستثنائي هو القرار الذي استقاه منها بيير مينار. فقد قرر أن يستبق الخيلاء الذي ينتظر كدح البشرية؛ فباشر مهمة معقدة غاية التعقيد، مهمة عقيمة منذ البدء. وسخّر وعيه ودراساته الليلية لتكرار كتاب موجود سلفاً في لسان أجنبي. تضاعف عدد المسودات على نحو لا يتناهى؛ صحح بعناد، ثم مزق آلاف الصفحات المخطوطة[1]. لم يسمح لأحد بالاطلاع عليها، واهتم بالغ الاهتمام أن لا يبقى حياً من خلالها. وعبثاً حاولت أن أعيد بناءها.

فكرتُ بأن من المشروع اعتبار النسخة «النهائية» من «دون كيخوتة» نوعاً من الطرس، تظهر عليه آثار – باهتة ولكنها ليست بالمستغلقة– تشع منها كتابة صديقنا «السابقة». ولسوء الحظ، لن يستطيع إلا بيير مينار آخر أن ينكب على عمل الأول، لينبش هذه الطروادات ويبتعثها...

كتب لي أيضاً: «ليس التفكير والتحليل والخيال بالأفعال الشاذة، بل هي التنفس الاعتيادي للذكاء. وتمجيد الإنجاز الظرفي لهذه الوظيفة، واكتناز أفكار الآخرين القديمة، والتذكر بانذهال لا يصدق لما فكر فيه خبير كوني، يعني الاعتراف بفتورنا وهمجيتنا. يجب أن يتمكن كل إنسان من جميع الأفكار، وأعتقد أن ذلك سيتاح له في المستقبل».

(1) أتذكر دفتر ملاحظاته المخطط، وتشطياته السوداء، ورموزه الطباعية الخاصة، وكتابته المنمنمة كالحشرات. في المساء، كان يطيب له أن يخرج في نزهات إلى ضواحي نيم؛ وفي الغالب كان يحمل معه دفتر ملاحظات ويشعل ناراً مرحة.

Twitter: @ketab_n

لقد أثرى مينار (ربما عفو الخاطر) فنَّ القراءة الابتدائي البطيء عن طريق تقنيات جديدة – تقنية المفارقة الزمنية المتعمدة والنسبة المتناقضة. وتشجعنا هذه التقنية، التي تتطلب صبراً وتركيزاً لا يتناهيان، على قراءة «الأوديسة» وكأنها جاءت بعد «الإنيادة»، وقراءة كتاب المدام هنري باشليه «حديقة القنطورات» كأنما كتبته المدام هنري باشليه. تجعل هذه التقنية أهدأ الكتب تعج بالمغامرات. أليس من شأن نسبة «تقليد المسيح» إلى لويس فردينان سيلين أو جيمس جويس أن يكون إحياءً كافياً لنصائحه الروحية الخافتة؟

نيم 1939

Twitter: @ketab_n

الخرائب الدائرية

لو أنه تُركَ يحلم بك...

من خلال المرآة، 6.

ما من أحدٍ رآه ينسرب من زورقه في الليلة المجمع عليها، ما من أحد رأى زورق الخيزران يغطس في الوحلِ المقدس، ولكن في بضعة أيام لم يكن هناك من لا يعلم أن الرجل السكّيت جاء من الجنوب، وأن بيته كان واحداً من بيوت تلك القرى التي لا حصر لها على النهر على صفحة الجبل القاسية، حيث لم يعد الإغريق يلوثون اللغة الزندية، وحيث لا يشيع الجذام. والمؤكد أن الرجل الأشيب قبّل الوحل، وتسلق الضفة دون أن يدفع جانباً نصال القصب الحادة (ولعله لم يشعر بها)، التي مزقت لحمه، فزحف واهناً، مخضباً بالدماء، حتى النهاية الدائرية التي يتوّجها تمثال حجري لحصان أو نمر، وكان لها ذات يوم لون النار، ولم يبق منها اليوم سوى لون الرماد. كانت تلك الدائرة معبداً التهمته محرقة قديمة؛ فدنسته الأحراش العطنة، ولم يعد إلهه يتلقى إجلالاً من البشر. تمدد الغريب تحت قاعدة التمثال.

أيقظته الشمس العالية فوق رأسه. ولم ينذهل حين وجد أن جروحه

Twitter: @ketab_n

اندملت. أغمض عينيه الشاحبتين ونام، لا نتيجة وهن أصاب جسده، بل نتيجة قرار متعمد. كان يعرف أن هذا المعبد هو المكان المطلوب لخطته التي لا تُقهَر؛ كان يعرف أن الأشجار المتشبثة لم تفلح في خنق خرائب معبد واعد آخر أسفل النهر، مكرس مثل هذا المعبد لآلهة ماتت واحترقت؛ كان يعرف أن واجبه المباشر يكمن في أن يحلم. ونحو منتصف الليل، أيقظته صرخة طائر لا عزاء له. فهم من آثار الأقدام العارية، وحبات التين، وجرة الماء، أن أهل المنطقة يتجسسون على نومه باحترام، ناشدين حمايته، أو خائفين من سحره. شعر بقشعريرة الخوف، فتلمس رخامة ضريح في الجدار المفتت، حيث غطى نفسه بأوراق لا يعرف كنهها.

لم يكن الهدف الذي ساقه مستحيلاً، وإن كان واضحاً أنه غيبي: فقد أراد أن يحلم برجل. أراد أن يحلم به بالتمام والكمال، وأن يفرضه على الواقع. هيمن هذا الهدف السحري عليه وملأ نفسه؛ حتى إذا سأله شخص ما عن اسمه، أو طلب منه أن يقول شيئاً عن حياته السابقة، لما استطاع أن يأتي بجواب. ناسبه هذا المعبد المهجور المفتت، لأنه كان أدنى حدود العالم المرئي؛ كما ناسبه قرب الحطابين، لأنهم اضطلعوا بتوفير حاجاته الزهيدة. فالرز والفاكهة التي يجلبونها له كانا غذاءً كافياً لجسده، المكرس للقيام بالمهمة الفريدة في النوم والحلم.

في البداية، كانت أحلامه اعتباطية؛ وفي غضون فترة قصيرة، غدت جدلية بطبيعتها. حلم الغريب بأنه كان في وسط مدرج دائري يشبه

Twitter: @ketab_n

قليلاً أو كثيراً المعبد المحترق؛ كانت مدرجات المقاعد تمتلئ بحشود من التلاميذ السكّيتين. تعلقت وجوه البعيدين منهم على مسافة عدة قرون، وعلى ارتفاع كوني، لكن ملامحهم دقيقة للغاية. ألقى الرجل محاضرة على تلامذته حول التنجيم والفلك والسحر، أصغت الوجوه بلهفة، وحاولت أن تجيب بفهم، كأنما استشعرت أهمية ذلك التعليم الذي سيخلص واحداً منها من حالة الفراغ الوهمي ويقحمه في العالم الواقعي. كان الرجل، في الحلم واليقظة، يتأمل إجابات أشباحه، ولم يسمح بأن يخدعه ملق المداجين، وأحس ببعض التردد بذكاء يتزايد. كان يبحث عن نفس جديرة بأن تشارك في العالم.

في الليلة التاسعة أو العاشرة، أدرك بشيء من المرارة، أنه لا يستطيع توقع شيء من هؤلاء التلاميذ الذين تلقوا دروسه بسلبية، بل فقط من أولئك الذين يعترضون عليها أحياناً. فالأولون – المتقبلون– وإن كانوا جديرين بالحب والعطف، لا يرقون إلى مستوى الأفراد، أما الآخرون الذين يستفسرون أحياناً فقد وجدوا وجوداً مسبقاً من نوع ما. وذات ظهيرة (وقد صارت الظهيرات تستسلم للنوم أيضاً، حين لم يعد يستيقظ إلا بضع ساعات في الفجر)، طرد حشد التلاميذ الوهمي دفعة واحدة، ولم يستبق منهم إلا تلميذاً واحداً، رجلاً شاباً، سكّيتاً، شاحب اللون، عنيداً أحياناً، تعكس ملامحه الحادة ملامح الحالم به. لم يربك إلغاء زملائه من التلاميذ خيال التلميذ طويلاً، وبعد بضعة دروس خاصة، صار تقدمه المتواصل يذهل أستاذه. مع ذلك، حصلت كارثة. فذات يوم، انتفض

Twitter: @ketab_n

الرجل من نومه، كأنما من صحراء لزجة، وتطلع إلى ضوء الظهيرة العقيم (الذي خلط للحظة بينه وبين ضوء الفجر)، وأدرك أنه لم يحلم. كلكل عليه صحو الأرق، تلك الليلة بطولها واليوم التالي. حاول استكشاف الغابة، مؤملاً أن يتعب وتخور قواه. ولم يسعفه الشوكران الذي تناوله إلا في تجربة عدة غفوات قليلة، تتخللها بعض الرؤى الهاربة الابتدائية العقيم. حاول أن يجمع حشد التلاميذ، ولم يطل به الوقت حتى نطق ببضع كلمات وعظ وجيزة، فتحلل الحشد وتلاشى. في حالة صحوه الذي يكاد يكون أبدياً، ترقرقت دموع السخط في عينيه الشائختين.

كان يفهم أن تشكيل المادة المفككة والمدوخة التي تتكون منها الأحلام هي أصعب المهام التي يباشرها إنسان، حتى لو كان يستطيع أن ينفذ إلى أسرار الأعالي والأسافل، أصعب حتى من فتل حبل من الرمال، أو صياغة ريح بلا وجه. فهم أن الفشل الأول أمر لا فكاك منه. أقسم أن ينسى الهلوسة المهولة التي أطاحت به في البداية، وبحث عن منهج عمل آخر. وقبل أن يشرع بتنفيذه، كرس شهراً كاملاً لاسترداد قوته، التي بددها الانفعال. تخلى عن جميع تصورات الحلم وأفلح مباشرة تقريباً في نوم قدر معقول من كل يوم. لم يعر انتباهاً للمرات القليلة التي خامرته بها الأحلام خلال هذه الفترة. وقبل الاستمرار في مهمته، كان عليه أن ينتظر حتى يكتمل قرص القمر. حينئذ، في الظهيرة، تطهر في مياه النهر، وتعبد للآلهة النجمية، ونطق بالمقاطع المقررة لاسم قدير، ثم ذهب لينام. وتقريباً حلم على الفور، بقلب يخفق.

Twitter: @ketab_n

حلم بقلب دافئ، فاعل، سري، بحجم قبضة يد مضمومة، شيئاً رمادي اللون داخل عتمة جسد إنساني لم يزل بعدُ بلا وجه أو جنس، بقي يحلم به بحب مؤلم طوال أربع عشرة ليلة ساطعة. وكل ليلة يدركه بوضوح أكبر، ويقين أكبر. لم يمسسه؛ بل ظل يشاهده، ويراقبه، ويصححه، ربما بعينيه. أدركه، وعاشه، من زوايا عدة، وعلى مسافات عدة. في الليلة الرابعة عشرة تلمس قليلاً الشريان الرئوي بسبابته، ثم القلب بأسره، من الداخل والخارج، وكان مقتنعاً بمعاينته. وتعمد ألا يحلم ليلة بطولها، ثم أخذ القلب مرة أخرى، واستعان باسم كوكب من الكواكب، وصار يحلم بعضو آخر من الأعضاء الأساسية. وقبل أن تكتمل السنة، وصل إلى الهيكل العظمي والجفنين. ولعل الشعر الذي لا يحصى كان أصعب المهام. حلم بإنسان كامل، شاب، لكنه لا يجلس ولا يتكلم، ولا يقدر أن يفتح عينيه. ليلة بعد ليلة، كان الرجل يحلم به في نومه.

في روايات خلق الكون الغنوصية، يصور صانعو العالم آدم أحمر لا يستطيع النهوض، أخرق الشكل، ناقص التكوين، مثل هذا الآدم الغباري الذي صاغه آدم الأحلام من ليالي سحره. ذات ظهيرة، أوشك الرجل أن يدمر كامل العمل الذي صنعته يداه، لكنه غير رأيه. (وكان الأفضل لو أنه دمره). حين استنفد النذور والدعوات لآلهة الأرض والنهر، رمى نفسه عند قدمي وثن ربما كان نمراً أو ربما مهراً، وتوسل إليه طالباً عونه الذي لم يجربه. في ذلك المساء، عند المغيب، ملأ التمثال

Twitter: @ketab_n

أحلامه. وفي الحلم، كان حياً، نابضاً، ولم يكن شكلاً مهجناً قبيحاً من الحصان والنمر، بل كان هذين المخلوقين المتقدين، كما كان ثوراً وزهرة وعاصفة. كشف الإله المتعدد للرجل أن اسمه الأرضي هو «النار»، وأنه في هذا المعبد الدائري (وغيره من أمثاله) كان الناس يقدمون له التضحيات ويعبدونه، وأنه سوف يبث الحياة سحرياً في الشبح الذي حلم به الرجل، بحيث تتصور المخلوقات كلها، باستثناء النار نفسها والحالم، أنه إنسان من لحم ودم. أمر الرجل بأنه بعد أن ينتهي من تعليمه الطقوس جميعاً، يجب أن يرسله إلى المعبد الخرب الآخر، الذي ما زالت أهرامه ترتفع أسفل النهر، وهكذا يقدس صوت ما الإله في ذلك المكان المهجور. في حلم ذلك الرجل الذي حلم، حلم أن الرجل استيقظ.

نفذ الساحر التعليمات التي تلقاها من النار. كرّس فترة معينة من الزمن (تبين أخيراً أنها سنتان) ليعلمه خفايا الكون وأسرار عبادة النار. في أعماقه، كان يحس بالألم لفكرة انفصاله عنه. وتحت ذريعة الضرورة التربوية، كان يزيد في عدد ساعات الحلم كل يوم. كما أعاد بناء الكتف اليمنى (التي وجد أنها كانت معلولة). أحياناً يباغته إحساس بأن كل هذا حدث من قبل... وعلى العموم، كانت أيامه سعيدة؛ حين يغمض عينيه، يفكر: **سأكون الآن مع ابني.** أو في الحالات النادرة: **ينتظرني الابن الذي أنجبته ولن يوجد إلا إذا ذهبت إليه.**

بالتدريج، بدأ يعوِّده على الواقع. أمره مرة أن يعلق راية على قمة جبل عالية. وفي اليوم التالي صارت الراية ترفرف على القمة. قام

Twitter: @ketab_n

بتجارب مشابهة أخرى، تزداد فيها الجرأة كل مرة. وبشيء من المرارة، وجد أن ابنه صار مستعداً، وربما متلهفاً، حتى يولد. تلك الليلة قبّله للمرة الأولى وأرسله إلى المعبد الآخر الذي يبعد عدة مراحل عن الغابة المتشابكة، وتزداد بقاياه شيخوخة تحت الشمس أسفل النهر. لكنه قبل ذلك (وحتى لا يعرف ابنه أبداً أنه مجرد خيال وشبح، وحتى يتصور نفسه رجلاً مثل سائر الناس)، نفخ فيه نسياناً كاملاً لسنوات تعلمه.

بدأ الملل يكدّر صفو انتصار الرجل وأمنه. فكان في ساعات التماع الغسق والفجر يسجد أمام التمثال الحجري، وربما تخيل أن ابنه غير الواقعي يؤدي طقوساً مماثلة في خرائب دائرية أخرى أسفل النهر، في المساء لم يعد يحلم، أو يحلم مثلما يحلم كل إنسان. كان إدراكه لأصوات الكون وأشكاله شاحباً نوعاً ما: إذ كان ابنه الغائب يقتات على تناقص روحه هذا. لقد تحقق الغرض من حياته؛ بقي الرجل الآن في نوع من النشوة. بعد فترة من الزمن (يحسبها بعض رواة الأخبار بالسنين، وبعضهم بالعقود) أيقظه رجلان يجذفان في منتصف الليل. لم يستطع رؤية وجهيهما، لكنهما أخبراه عن إنسان سحري عند المعبد في الشمال، إنسان يمشي على النار دون أن يشتعل.

فجأة تذكر الساحر كلمات الإله. تذكر أن النار، من بين جميع المخلوقات التي تعمر الأرض، هي وحدها التي تعرف أن ابنه مجرد شبح. وهذه الذكرى، التي أراحته في البداية، سرعان ما تحولت إلى عذاب له. فقد خشي أن يتأمل ابنه في هذا الامتياز الشاذ ويكتشف نوعاً ما أنه

Twitter: @ketab_n

مجرد خيال. يا للعار الشنيع، يا للهول، أن لا يكون إنساناً، وأن يكون مجرد مشروع في أحلام إنسان آخر! يهتم كل أب بأبنائه الذين أنجبهم (أو سمح بإنجابهم) بسعادة أو بمجرد اختلاط، وكان من الطبيعي للساحر أن يخشى على مستقبل ذلك الابن الذي تصوره عضواً فعضواً، وملمحاً فملمحاً، على امتداد ألف ليلة وليلة سرية.

فجأة وصلت تأملاته إلى نهايتها، وإن آذنت بها بعض العلامات: في البداية ظهرت غيمة بعيدة (بعد جفاف طويل)، بيضاء بياض طائر، على التل، ثم بالقرب من الجنوب، اتخذت السماء لوناً ورديا كلون لثة فهد، ثم جاءت غيوم الدخان التي كلكلت بالصدأ على معادن الليالي، بعد ذلك حصل فرار مرعب للحيوانات المتوحشة. ما حصل قبل مئات السنين ها هو يتكرر الآن. كانت النار تدمر خرائب حرم إله النار. وفي فجر بلا طيور، رأى الساحر المحرقة المستعرة تدب إلى الجدران. فكر للحظة بالالتجاء إلى الماء، لكنه أدرك حينئذ أن الموت سيتوج شيخوخته ويعفيه من أعبائه. تمشى نحو خرق اللهب المشتعل. لكنها لم تنهش لحمه، بل ربتت عليه، وغمرته دون حرارة أو إحراق. بارتياح، بخزي، برعب، أدرك أنه، أيضاً، كان وهماً يحلم به إنسان آخر.

Twitter: @ketab_n

النصيب في بابل

مثل جميع أهل بابل، كنت والياً، ومثل الجميع، كنتُ عبداً. جربت السلطة، والعار، والسجن. انظر هاهنا – ليس في يدي اليمنى سبابة. انظر هاهنا – من خلال هذا الشق في إزاري لترى على كرشي وشماً قرمزياً – إنه الحرف الثاني من الأبجدية «بيت». في الليالي التي يكتمل فيها القمر، يهبني هذا الرمز قوة على الناس الذين يحملون علامة «جيمل»، لكنه يُخضعني لمن يحملون علامة «ألف»، ممن يُظهِرون الخضوع في الليالي التي تخلو من القمر إلى سلطان من يحملون علامة «جيمل». في الفجر الشاحب، في قبو، وأنا أقف أمام مذبح أسود، سلخت حناجر ثيران مقدسة. في إحدى السنوات القمرية، صُرِّح لي بأن أكون خفياً غير مرئي: كنت أصرخ فلا يسمع أحدٌ صراخي، وأسرق خبز يومي ولا يُبتَر عنقي. لقد عرفتُ شيئاً لم يعرفه الإغريق، ألا وهو عدم اليقين. في غرفة نحاسية، وأنا أواجه لفافة الخنّاق الصامتة، لم يخذلني الأمل، وفي نهر اللذائذ، لم يحبطني الرعب. يروي هيراقليطس البونطيقي بإعجاب أن فيثاغورس تذكر أنه كان فيرون، وقبل ذلك يوفروبوس، وقبل ذلك أناساً فانين آخرين، لكي أتذكر تقلبات مشابهة، لا أحتاج الرجوع إلى

Twitter: @ketab_n

الموت أو إلى الدجل.

أدين في هذه التحولات المهولة تقريباً إلى مؤسسة – هي النصيب– مجهولة لدى الأمم الأخرى، أو هي تعمل لديها عملاً منقوصاً أو في السر. ولم أنبش تاريخ هذه المؤسسة. أعرف أن الحكماء لم يتوصلوا إلى اتفاق. وأعرف عن أهدافها القوية ما يعرفه عن القمر رجل لم يدرس الفلك. فأنا أنتمي إلى بلد مدوخ يشكل «النصيب» فيه عنصراً جوهرياً من عناصر الواقع؛ وحتى اليوم، لا تزيد أفكاري عنه على أفكاري عن سلوك الآلهة الملغزة أو عن ضربات قلبي. والآن، وأنا بعيد عن بابل وعن عاداتها المحبوبة، أفكر في النصيب ببعض الانذهال، وأتأمل التصورات التجديفية التي يهمس بها الرجال في ظلال الفجر أو غسق المساء.

روى لي والدي أنه قديماً، منذ قرون أو سنين، كان النصيب في بابل لعبة يلعبها العامة. روى (ولست أدري مدى صحة ذلك) كيف كان البرابرة يأخذون قطع النقود النحاسية لدى الإنسان ويعطونه بدلها مستطيلات من العظام أو الرقوق المزينة بالرموز. كانت قرعة «النصيب» تجري في منتصف النهار: فكان من يبتسم لهم القدر، دون تأييد إضافي من الحظ، يفوزون بقطع نقدية مسكوكة من الفضة. وكانت العملية، كما ترى، أولية.

بالطبع، أخفق من يسمون بـ«النصيبيين». إذ كانوا يفتقرون إلى الفضيلة الأخلاقية من أي نوع. وهم لم يلجأوا إلى ملكات الناس كلها، بل اعتمدوا على استثارة آمالهم فقط. وسرعان ما غدا عدم الاكتراث

Twitter: @ketab_n

العام يعني أن يبدأ التجار الذين أسسوا هذه الأنصبة الفاسدة بفقدان أموالهم. حاول أحدهم أن يقدم شيئاً جديداً: وهو دس بعض السحبات غير المحظوظة ضمن الأعداد المحظوظة. وكان هذا التجديد يعني أن يواجه من يشترون التذاكر المرقمة حظاً مزدوجاً، إما في الفوز بمبلغ أو غرامة مبلغ غالباً ما يكون محترماً. وكما هو متوقع، فقد أثارت هذه المخاطرة الصغيرة (من كل ثلاثين رقماً «جيداً»، هناك رقم واحد منحوس الطالع) اهتمام العامة. اندفع البابليون في هذه اللعبة. صار يُنظر إلى من لا يشتري نصيباً باعتباره جباناً خائراً يفتقر إلى روح المغامرة. وتضاعف الاحتقار، في الوقت نفسه، إذ لم يلحق الاحتقار بمن لا يلعب هذه اللعبة وحسب، بل أيضاً بمن يخسر ويسدد الغرامة. فاضطرت الشركة (كما صار يُطلق عليها في ذلك الوقت) إلى اتخاذ إجراءات لحماية الفائزين، الذين لا يستطيعون استحصال جوائزهم ما لم يتم جمع مبلغ الغرامات الكاملة قبل ذلك. صارت الشركة ترفع دعاوى ضد الخاسرين: فيدينهم القاضي بدفع الغرامة الأصلية زائداً تكاليف المحاكمة أو قضاء عدد من الأيام في السجن. وبهدف الالتفاف على الشركة، كان الخاسرون يفضلون السجن. ومن جسارة قلة من الرجال تستمد الشركة مركزها القدير وقوتها السماوية والغيبية.

بعد فترة من الزمن، صارت تقارير السحبات تحذف أرقام الغرامات وتنحصر بنشر أحكام السجن بما يتوافق مع كل رقم خاسر. ثم صار هذا الاقتضاب، الذي لم يشعر به أحد في حينه، ذا أهمية كبيرة. **فقد شكّل أول**

Twitter: @ketab_n

ظهور للعناصر غير المالية في النصيب. وكان نجاحه مذهلاً، بل إن اللاعبين دفعوا الشركة إلى زيادة عدد السحبات الخاسرة.

لا يُنكَرُ أن أهل بابل معجبون للغاية بالمنطق، بل حتى بالتناظر، وقد وجدوا أن من غير المنطقي أن تُدفع لأصحاب الأرقام الفائزة النقود الفضية المدورة، بينما تُحسب أيام أصحاب الأرقام الخاسرة ولياليهم في السجن. وزعم بعض الأخلاقيين أن امتلاك القطع النقدية لا يحقق السعادة وأن هناك أشكالاً أخرى من السعادة ربما تكون أكثر مباشرة.

وهناك مصدر آخر للتذمر لدى الفئة الدنيا من أهل المدينة. فقد راهن أعضاء الطبقة الكهنوتية بشدة، وهكذا اشتركوا في جميع ضروب الرعب والأمل، ورأى الفقراء أنفسهم (بنوع من الحسد المفهوم أو الحتمي) مستبعدين عن ذلك الدولاب اللذيذ والمحسوس. وقد أحدثت الرغبة العادلة والمعقولة في أن يكون الناس جميعاً، رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء، قادرين على المشاركة بالتساوي في النصيب مظاهرات ساخطة، لم يفلح الزمن في إطفاء ذكراها. ولم تفهم بعض النفوس العنيدة (أو تظاهرت بأنها لم تفهم) أن ذلك كان مرحلة تاريخية ضرورية... سرق أحد العبيد تذكرة قرمزية، وهي تذكرة أوجبت على حاملها أن يحترق لسانه في السحبة التالية. وقد سنَّ القانون الجنائي العقوبة نفسها لمن يسرق تذكرة. زعم بعض البابليين أن العبد يستحق القضيب المحمي لكونه سارقاً؛ وزعم آخرون، أكثر شهامة، أن الجلاد يجب أن يستعمل القضيب لأن القدر قرر أن...

Twitter: @ketab_n

فاندلعت الاضطرابات، وحصلت حالات إراقة دماء يؤسف لها، غير أن جموع البابليين فرضت في النهاية إرادتها على المعارضة الغنية. أي أن الناس حققوا أهدافهم النبيلة تماماً. في المحل الأول، اضطرت الشركة إلى القبول بالسلطة العامة الكاملة. (وكان التوحيد ضرورياً بحكم اتساع العمليات الجديدة وتعقيدها). ثانياً، أوجب ذلك أن يكون الاقتراع والنصيب سرياً ومجانياً ومتاحاً للعموم. أُبطل الارتزاق ببيع تذاكر النصيب. وحالما كُرِّس النصيب لأسرار بعل، صار كل إنسان حرٌّ يشارك تلقائياً في السحبات المقدسة، التي كانت تجري في متاهات الآلهة كل ستين ليلة وتقرر مصير كل مواطن حتى السحبة القادمة. ولم تكن النتائج داخلة في الحسبان. فقد تفضي سحبة سعيدة بترقية الشخص إلى مجلس السحرة، أو حبس عدوٍّ له (سري أو علني)، أو ربما عثوره، وهو في ظلال غرفته المسالمة، على امرأة تبدأ بتعكير صفوه، أو امرأة لم يتوقع أبداً أن يراها مرة أخرى، أما السحبة المنحوسة فقد تعني بتر أحد أوصاله، أو العار بأنواعه، أو الموت. أحياناً يكون حدث واحد – مثل قتل (س) في حانة، أو تمجيد (ص) الغامض– أوضح نتيجة للسحبات الثلاثين أو الأربعين. ولكن ينبغي أن يظل ماثلاً في البال أن أفراد الشركة كانوا (وما زالوا) أقوياء وأذكياء جداً. في كثير من الحالات، تنتقص المعرفة بأن بعض المنعطفات السعيدة هي نتيجة بسيطة تترتب على الحط من قيمة هذه الامتيازات؛ ولتحاشي هذه المزعجات، استفاد وكلاء الشركة من المقترحات والسحر. فكانت المسالك التي يتبعونها، والحيل

Twitter: @ketab_n

التي يمارسونها، سرية الطابع. وبغية استكشاف آمال الإنسان الداخلية ومخاوفه الداخلية، كانوا يلجأون إلى المنجمين والجواسيس. كانت هناك أسود حجرية، كان هناك كنيف مقدس يسمى «قفقة»، شقوق في قناة مائية صدئة – يذهب الرأي العام إلى أن هذه الأماكن هي «التي أفضت إلى الشركة»، ويودع الخيرون أو الأشرار تقاريرهم السرية في هذه الشقوق. ويحتفظ أرشيف ألفبائي بالملفات ذات المصداقية المتفاوتة.

والغريب حقاً أن الشكاوى لم تتوقف. لكن الشركة بتحفظها المعتاد لم ترد مباشرة؛ بل فضلت أن تخربش اعتذاراً وجيزاً – ينتصب الآن بين الكتابات المقدسة– في حطام مصنع أقنعة. أشار هذا الاعتذار على نحو نسقي إلى أن النصيب إقحام للمصادفة في نظام الكون، وأن القبول بالأخطاء إنما يهدف إلى تعزيز القدر، وليس التناقض معه. كما أنه لاحظ أن تلك الأسود، وأماكن الربض، وإن لم تتنصل منها الشركة (التي لم تنكر حق العودة إليها) كانت تعمل من دون ضمانة رسمية.

هدّأ هذا البيان من روع العامة. لكنه أيضاً أحدث آثاراً أخرى، ربما لم يرها كاتبه. فقد غير تغييراً عميقاً كلاً من روح الشركة وعملياتها. (ولم يتبق لي وقت كثير، فقد قيل لنا إن السفينة على وشك الإبحار، لكنني سأحاول تفسيره).

مهما بدا الأمر غير مرجح، فإن أحداً لم يجرب، حتى الآن، أن يضع نظرية عامة حول الألعاب. والبابليون ليسوا بالشعب الذي يحب التأمل كثيراً؛ بل هم يخضعون لإملاءات القدر، ويتنازلون له عن حيواتهم،

Twitter: @ketab_n

وآمالهم، ورعبهم الذي لا يسمى، ولكن لم يحدث لهم قط أن نبشوا في قوانينه المتاهية أو أطواره وأكواره التي تنم عنه. غير أن البيان شبه الرسمي الذي ذكرته أوحى بشتى المناقشات ذات الطبيعة القانونية والرياضية. وتولد عن إحدى هذه المناقشات التخمين التالي: إذا كان النصيب تفعيلاً وتعميقاً للمصادفة، أي استدخالاً دورياً للخواء في الكون المنظم، حينئذ أليس من المناسب أن تتدخل المصادفة في كل مظهر من مظاهر السحبة، وليس في واحد منها؟ أليس من المعيب أن تقرر المصادفة موت شخص، في حين أن ظروف ذلك الموت – سواء أكانت خاصة أم عامة، وسواء استغرقت ساعة أم قرناً– لا ينبغي أن تكون عرضة للمصادفة؟ وأخيراً حرضت هذه الاعتراضات المعقولة تماماً على إجراء إصلاح شامل، وتعقيدات النظام الجديد (التي عمقها كونه ظل يمارس على مدى قرون) لا يفهمها إلا حفنة من الأخصائيين، لكني سأحاول إيجازها، حتى لو كان هذا الإيجاز رمزياً. دعونا نتخيل سحبة أولى، تسفر عن موت فرد ما. لإمضاء هذا الحكم، لا بد من إجراء سحبة أخرى، يسفر عنها، لنقل، تسعة جلادين ينفذون الحكم. من هؤلاء التسعة، ينبغي أن ينخرط أربعة في سحبة ثالثة لتحديد اسم الجلاد، وينبغي أن يستبدل اثنان السحبة المنحوسة بسحبة محظوظة (مثل: اكتشاف كنز)، وينبغي أن تقرر ثالثة أن الموت يجب أن يتفاقم (الموت مع العار، أو الموت مصحوباً بالتعذيب)، وقد يكتفي آخرون برفض تنفيذ الحكم...

ذلك هو المخطط الرمزي. في الواقع، يكون عدد السحبات لا

Twitter: @ketab_n

نهائياً. ما من قرار نهائي، بل يصب كل قرار في غيره. يتصور الجهلة أن العدد اللانهائي للسحبات يتطلب زمناً لانهائياً؛ أما فعلياً، فكل ما هو مطلوب هو أن ينقسم الزمن انقساماً لانهائياً، كما في الحكاية الشهيرة عن «السباق مع السلحفاة». ويتوافق هذا اللاتناهي توافقاً ملحوظاً مع «المثل السماوية» للنصيب التي يهيم بها الأفلاطونيون... ويبدو أن صدى مشوهاً من عاداتنا بلغ نهر «التيبر»: إذ ينقل لنا أوليوس لامبريديوس، في كتابه «حياة أنطونينس هليوجَبَلوس» كيف أن هذا الإمبراطور كتب مصائر ضيوفه على الأصداف، بحيث قد يحصل واحد على عشرة أرطال من الذهب، وآخر على عشر ذبابات، وعشر زغاب، وعشرة دببة. والأولى أن نتذكر أن هليوجبلوس تعلم في آسيا الصغرى، بين كهنة إلهه الذي أعطاه اسمه.

هناك أيضاً سحبات تمتاز باللاشخصية، والهدف منها غير واضح. تقضي إحدى السحبات بأن يُرمى ياقوت «طفروبانة» إلى مياه الفرات، وأخرى بأن يطلق طائر من أعلى برج معين، وأخرى بأن تضاف (أو تؤخذ) كل مائة سنة حبة رمل واحدة إلى حبات الرمال التي لا تنحصر على ساحل معين. وأحياناً تكون النتائج مهولة.

وبتأثير من شركتنا المحسنة، تشربت عاداتنا بالمصادفة تشرباً. ولن يعتري العجب من يشتري بضع جرار من خمر دمشق ثم يجد أنها تحتوي على تميمة أو دخان. ونادراً ما ينسى الكاتب الذي يسجل العقود أن يضمّن احتمال الخطأ؛ بل لعلي أنا نفسي في هذا البيان المتسرع قد أسأتُ

Twitter: @ketab_n

تصوير الفخامة، أو الفظاعة، أو ربما الاحتكار الغامض أيضاً... وقد ابتكر مؤرخونا، الأكثر براعة في العالم، منهجاً لتصحيح المصادفات. ومن المعروف أن نتائج هذا المنهج (بشكل عام) جديرة بالثقة؛ بالرغم من أنها بالطبع لا تذاع إلا بقدر من الخديعة. زد على ذلك أنه ما من شيء يفسد الخيال مثل تاريخ الشركة... وقد تأتي وثيقة منقوشة، يُكشف عنها في معبد ما، من سحبة الأمس أو من سحبة حصلت قبل قرن. وما من كتاب يُطبع من دون دسّ بعض الفروق في نسخه. ويؤدي الكتبة قسَماً سرياً على الحذف والزيادة والتنويع. كما يُمارس أيضاً التزييف غير المباشر.

وتتملص الشركة، بتواضعها الإلهي، من كل شعبية. ومن الطبيعي أن وكلاءها سريون. والأوامر التي تصدرها باستمرار (وربما من دون انقطاع) لا تختلف عن الأوامر التي يجود بها الدجالون بسخاء. زد على ذلك، من يطيب له أن يتباهى بأنه مجرد دجال؟ السكير الذي يرتجل السخف، والحالم الذي يصحو فجأة ليخنق المرأة الممددة إلى جانبه حتى الموت، ألا يمكن أن يحمل كلاهما قراراً سرياً اتخذته الشركة؟ يوحي هذا التوظيف السري، الذي يمكن مقارنته بالتوظيف الرباني، بكل ضروب التخمينات. يوحي أحدها بسفاهة أن الشركة توقفت عن الوجود منذ مئات السنين، وأن الفوضى المقدسة في حياتنا هي مجرد أمر تقليدي موروث، ويعتقد آخر أن الشركة أبدية، وأنها ستبقى حتى آخر ليلة، حين يبطل آخر إله الأرض وما عليها. بينما يزعم آخر أن الشركة كلية

Twitter: @ketab_n

القدرة، لكنها لا تمارس تأثيرها إلا في القضايا الصغيرة: صيحة طائر، ظلال الصدأ والغسق، وأنصاف الأحلام التي تتهاوى عند الفجر. وهناك تخمين آخر، تفوه به أصحاب بدع مقنعون، واشتهر أن «الشركة لم توجد قط ولن توجد». ويزعم تخمين آخر، لا يقل خسة، أنه لا فرق بين أن يؤكد المرء أو ينفي واقعية التشاركية الشبحية، لأن بابل نفسها ليست سوى لعبة مصادفة لا تنتهي.

Twitter: @ketab_n

فحص أعمال هربرت كوين

توفي هربرت كوين مؤخراً في روسكومن. ولا أستغرب كثيراً أن يكون «ملحق التايمز الأدبي» قد كرّس له نصف عمود هزيل من تأسفات النعي لا يرد فيه نعت تمجيد واحد ما لم تجاوره (أو توازنه بقوة) صفة أخرى. ولا تقل صحيفة «المتفرج» (Spectator) إيجازاً في عددها المقابل، من دون شك، ولعلها أكثر مودة، لكنها تقارن كتاب كوين الأول، «إله المتاهة»، بأحد كتب أغاثا كريستي، وكتباً أخرى بأعمال جيروترودشتاين. وهذه مقارنات ما من أحد يفكر أنها ضرورية، ولا أنها يمكن أن تسر الفقيد. كما أن كوين نفسه لم يعتبر نفسه «عبقرياً» أبداً، حتى في ليالي المناقشات الجوالة، حين كان الرجل يرهق في ذلك الحين عدداً من المطابع بتمثيله دور مسيو تيست أو الدكتور صموئيل جونسن... والواقع أنه فهم بوضوح مطلق الطبيعة التجريبية لأعماله، التي قد تكون مثار إعجاب بسبب ما فيها من ابتكار وجدة ونزاهة مقتضبة، وليس لما فيها من قوة عاطفة. وقد كتب لي في رسالة بعثها من لونغفورد يوم 6 آذار 1939: «إنني مثل القصائد الشعرية لدى كاولي، لا أنتمي إلى الفن، بل إلى تاريخ الفن». (وفي رأيه، ليس هناك من حقل

Twitter: @ketab_n

أدنى منزلة من التاريخ).

لقد اقتبست رأي كوين المتواضع بنفسه، لكن هذا التواضع، بالطبع، لا يستغرق حدود تفكيره. لقد عوّدنا فلوبير وهنري جيمز على افتراض أن الأعمال الفنية شحيحة ومجهدة في صعوبتها، لكن القرن السادس عشر (وحسبنا أن نتذكر «رحلة إلى بارناسوس»، أو مصير شكسبير) لا يشترك في هذا الرأي الموحش. كما لا يشترك فيه كوين. كان يعتقد أن «الأدب العظيم» هو أكثر الأشياء شيوعاً في العالم، وأن من النادر أن يدور حوار في الشارع لا ينطوي على ذروة أدبية. كان أيضاً يعتقد أن الفعل الجمالي يجب أن يضم عنصر الإدهاش والصدمة، وأن الإدهاش بالحفظ والاستظهار صعب. ولذلك يأسف، بإخلاص مبتسم، «للمحافظة العنيدة والذليلة» في كتب الماضي... ولست أدري ما إذا كان لنظريته الغامضة ما يبررها أو لا؛ لكني أدري تماماً أن كتبه تسعى سعياً إلى الإدهاش.

أشعر بأسف عميق لأنني أعرت لسيدة من معارفي، دون رجعة، الكتاب الأول الذي نشره كوين. وقد قلت إنه قصة بوليسية، عنوانها «إله المتاهة»، وقد أطلق الناشر هذه الرواية في أواخر أيام تشرين الثاني من العام 1933. في أوائل كانون الأول، أثارت المداورات السارة والشاقة حول «لغز التوأم السيامي» في لندن ونيويورك قدراً من السحر والفتنة، وفي رأيي، فإن فشل عمل صديقنا يمكن أن يعزى إلى هذه المصادفة المدمرة. ولا بد لي أن أذكر (لكي أكون في منتهى النزاهة) مناقص الإنجاز

Twitter: @ketab_n

والتكلف الأجوف والفاتر في بعض أوصاف البحر لديه. وبعد انقضاء سبع سنوات، من المستحيل أن أستعيد تفاصيل الحبكة، لكني سأوجز مخططها العام، بقدر ما يتيح لي (أو بقدر ما يطهرها) نسياني. تحدث في الصفحات الأولى من الكتاب جريمة غير مفهومة؛ تجري مناقشتها في منتصف الكتاب، ثم ينكشف حلها في النهاية. وما أن يتضح اللغز وتنحل الحبكة، حتى يرد مقطع استرجاعي طويل يحتوي على الجملة الآتية: **اعتقد كل شخص أن لاعبي الشطرنج تقابلا مصادفة.** تسمح هذه العبارة لشخص ما أن يفهم أن الحل مغلوط، فيعيد القارئ غير المطمئن النظر في الفصول ذات الصلة ليكتشف حلاً آخر، هو الحل الصحيح. وبالتالي يكون قارئ هذا الكتاب المميز أكثر فطانة من المحقق.

لكن العمل الأكثر ابتداعاً هو «الرواية المتراجعة، المتشعبة»، «نيسان آذار»، التي يحمل القسم الثالث (والوحيد) منها تاريخ 1936. لا يخطئ أحد، عند الحكم على الرواية، في اكتشاف أنها لعبة؛ ومن الإنصاف، فيما أرى، أن نتذكر أن المؤلف نفسه لم يرها في ضوء آخر أبداً. وقد سمعته يقول عنها ذات مرة: «أزعم أنني استثمرت في هذه الرواية الملامح الجوهرية في أية لعبة: التناظر، والقواعد الاعتباطية، والملل». بل إن عنوان الكتاب نفسه ينطوي على تورية ضعيفة: فهو لا يعني: [نَوَسان] آذار، بل يعني حرفياً: نيسان آذار. ولاحظ أحد القراء أن في هذا العمل صدى لمذهب دن، لكن الاستهلال لدى كوين يفضّل أن يلمّح إلى عالم برادلي الذي يجري تراجعياً، فيسبق فيه الموتُ الميلادَ،

Twitter: @ketab_n

والندبةُ الجرحَ، والجرحُ الطعنةَ (المظهر والواقع، 1897، ص 215)[1].

لكن ليست العوالم التي تقترحها رواية «نيسان آذار» هي التراجعية، بل الطريقة التي تروى بها القصص - تراجعياً وبتشعب، كما قلت. ويتكون الكتاب من ثلاثة عشر فصلاً. ينقل الأول محادثات غامضة تجري بين عدة أشخاص مجهولين على رصيف محطة قطار. ويروي الثاني أحداث المساء الذي يسبق الأول. وينقل الثالث، بطريقة القهقرى كذلك، أحداث مساء آخر مختلف قبل الأول، ويروي الفصل الرابع أحداث مساء آخر. ويتشعب كل فصل من فصول هذه «الأماسي القبلية» (التي تتبادل الإقصاء) إلى ثلاث أماس قبلية أخرى، تختلف جميعها اختلافاً تاماً. وهكذا ينطوي العمل بكامله على تسع روايات، وتحتوي كل رواية على ثلاثة فصول مطولة. (وبالطبع، فالفصل الأول يشترك فيها جميعاً). إحدى هذه الروايات رمزية، وأخرى غيبية، وثالثة رواية بوليسية، وأخرى نفسية، وأخرى رواية شيوعية، وأخرى مضادة

(1) أُفٌّ من سعة اطلاع هربرت كوين وأف من الصفحة 215 في كتاب يحمل تاريخ 1897! وقد وصف متحاور في كتاب «السياسي» لأفلاطون، وهو متحاور لا يحمل اسماً، بل لقباً: «الغريب الأيلي»، قبل ما يزيد على ألفي سنة، تراجعاً مماثلاً، هو تراجع أبناء الأرض «تيرا»، أو «الأتوخثون»، الذين تعرضوا لتأثير دوران العالم المقلوب، وانتقلوا من الشيخوخة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الطفولة، ومن الطفولة إلى الاختفاء والانعدام. ويتحدث ثيوبومبوس، أيضاً، في كتابه «الفيليبيين»، عن فواكه شمالية تولد لدى من يأكلها عملية نكوصية مماثلة... والأغرب من هذه الصور تخيل انقلاب الزمن نفسه، حيث نتذكر المستقبل ولا نكاد نعرف عن الماضي سوى هجسه. انظر النشيد العاشر من «الجحيم»، الأبيات 97– 105، حيث تقارن الرؤيا النبوية باستباق البصيرة.

Twitter: @ketab_n

للشيوعية؛ وهكذا. ولعل التمثيل الرمزي الآتي يساعد القارئ في فهم بنية الرواية:

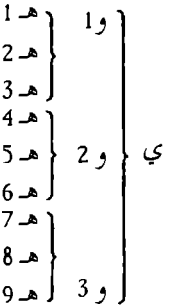

حول هذه البنية، قد نعيد قول ما قاله شوبنهاور حول المقولات الكانطية الاثنتي عشرة: «لقد ضحى بكل شيء من أجل ولعه بالتناظر». ولا ريب أن بعض القصص التسع لا تليق بكوين، وأفضل قطعة ليست هي ما خطط له كوين في الأصل، هـ4؛ بل واحدة من تلك القطع الفنطازية، هـ9. وهناك قصص تشوّهها النكت الباهتة أو الدقة المفرطة الزائفة. ومن يقرأ القصص في نظامها الزمني على الترتيب (مثلاً: هـ3، و1، ي) يضيع النكهة الخاصة في هذا الكتاب الغريب. وليس لقصتين فيها، (هـ7، هـ8) من قيمة فردية خاصة؛ بل إن ترادفهما هو مصدر الفاعلية فيهما... ولست أدري هل ينبغي لي أن أذكِّرَ القارئ أنه بعد طبع «نيسان آذار»، أعاد كوين النظر في هذا الترتيب الثلاثي وتوقع أن من يريد محاكاته سيختار مخططاً ثنائياً:

Twitter: @ketab_n

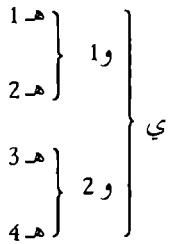

وأن الآلهة والصانعين سيختارون المخطط اللانهائي، والقصص اللانهائية، التي تنقسم انقساماً لانهائياً.

أما الملهاة البطولية ذات الفصلين «المرآة السرية» فمختلفة كلياً، لكنها تراجعية أيضاً. ففي العملين المذكورين قبل قليل، يعوق التعقيد الشكلي خيال المؤلف، لكن الخيال مطلق العنان في «المرآة السرية». يحدث أول فصول المسرحية (وأطولها) في منزل ريفي تمتلكه شركة الجنرال ثريل، بالقرب من ملتن ماوبراي. والمركز الخفي الذي تدور حوله الحبكة هو السيدة أولريكا ثريل، بنت الجنرال الكبرى. يتم تصويرها لنا من خلال بعض سطور الحوار، بوصفها فارسة متعجرفة، فنشك في كونها تثقفت بالأدب، وأعلنت الصحف عن خطوبتها لدوق روتلاند. ثم أعلنت الصحف نفسها فسخ الخطوبة. كانت ثريل موضع تقدير كاتب مسرحي، اسمه ولفريد كوارلز، فتبادلت معه مرة أو مرتين قبلة شاردة. تمتلك الشخوص ثروات طائلة وعرقاً عريقاً، عواطفها نبيلة، وإن تكن متقدة، ويبدو الحوار متأرجحاً بين الإسهاب الأجوف لدى بلوير – ليتون والحكم المرسلة لدى وايلد أو فيليب غيدالا. هناك عندليب وليل،

Twitter: @ketab_n

هناك مبارزة سرية على السطح، (وتوجد تناقضات دقيقة غير مرئية بالكامل، بعضها مثير للفضول، أحياناً، وتفاصيل دنيئة).

تعاود شخصيات الفصل الأول الظهور في الفصل الثاني، وهي تحمل أسماء أخرى. يعمل «الكاتب المسرحي» ولفريد كوارلز بائعاً متجولاً في ليفربول. اسمه الحقيقي جون وليم كويغلي. والسيدة ثريل توجد وجوداً فعلياً، لكن كويغلي لم يرها قطُّ، غير أنه مهووس مرضياً بجمع صورها من «الثرثار» و«المخطط». وكويغلي هو مؤلف الفصل الأول. والبيت الريفي غير الممكن أو غير المرجح هو النزل الإيرلندي – اليهودي، وقد أعاد صياغته وضخمه، وهو يعيش فيه... ونسيج الفصلين متوازٍ، وإن كان في الفصل الثاني يبدو مرعباً قليلاً، فيجري تأجيل كل شيء أو إحباطه. وحين عرضت «المرآة السرية»، صار النقاد يتداولون أسماء فرويد وجوليان غرين. وفي تقديري، فإن ذكر الأول غير مبرر على الإطلاق.

راجت شائعة تقول إن «المرآة السرية» كانت ملهاة فرويدية؛ وفرضت هذه القراءة المتعاطفة (التي لا تخلو من مغالطة) نجاحها. لسوء الحظ، كان كوين قد بلغ أصلاً الأربعين من العمر؛ وقد اعتاد الفشل تماماً، فلم يهن عليه أن يغير من نظامه. ووطد عزمه على الانتقام. في أواخر عام 1939، نشر «الأحكام»، ولعله أكثر أعماله أصالة، وأقلها إطراءً، وأكثرها سرية. وكثيراً ما كان كوين يزعم أن القراء فصيلة منقرضة. كان يرى «أن كل أوربي هو كاتب ضمناً أو بالفعل». كما أنه كان يؤكد أن أعظم

Twitter: @ketab_n

متعة من متع الأدب المتنوعة تكمن في الخيال. لكن ما دام لا يقدر كل شخص على خوض هذه المتعة، فلا بدَّ أن يرتضي الكثيرون بالصور الزائفة. لهؤلاء «الكتّاب الناقصين»، الذين يشكل اسمهم جيشاً جراراً، كتب كوين ثماني قصص في «الأحكام». تصور كل واحدة منها أو تعد بحبكة جيدة، يحبطها المؤلف متعمداً. تلمح إحدى القصص (وليست أفضلها) إلى حبكتين، فيعتقد القارئ، المفعم بالغرور، أنه ابتكرهما. وقد كنت مخلصاً جداً في أن أنتزع من القصة الثالثة، بعنوان «زهرة الأمس»، قصتي «الخرائب الدائرية»، التي تشكل إحدى القصص في كتابي «حديقة المسالك المتشعبة». **1941**

Twitter: @ketab_n

مكتبة بابل

لعلك تتأمل بهذا الفن
تنوع ثلاثة وعشرين حرفاً.

• **تشريح السوداوية**

يتألف الكون (الذي يسميه آخرون بالمكتبة) من عدد لا يُحصى، وربما لا يتناهى، من القاعات السداسية. في وسط كل قاعة أسطوانة تهوية يحيط بها حاجز خفيض. ومن كل قاعة سداسية يستطيع المرء أن يرى الطوابق في الأعلى والأسفل، واحداً في إثر الآخر، بلا انتهاء. وترتيب القاعات هو دائماً الترتيب نفسه: عشرون خزانة كتب، خمسة على كل جانب باستثناء اثنين، وارتفاعها الذي هو ارتفاع كل طابق لا يكاد يتجاوز معدل قامة كتُبي. ينفتح أحد الجوانب الخالية على ممر ضيق، يفضي إلى قاعة أخرى، مماثلة للأولى ولجميع القاعات الأخرى. على يسار الممر ويمينه توجد حجرتان مصغّرتان. إحداهما للنوم وقوفاً، وتسمح الأخرى بقضاء الحاجات الجسدية. ويخترق هذا المكان أيضاً سلم دائري يلتف إلى الأعلى والأسفل على مسافات بعيدة. وفي طريق الممر تطل مرآة معلقة تضاعف المظاهر المترائية بأمانة. وقد جرت عادة

Twitter: @ketab_n

الناس على الاستنتاج من هذه المرآة أن المكتبة ليست باللانهائية (فإذا لم تكن كذلك حقاً، فلماذا هذه المضاعفة الوهمية؟)؛ وأفضل أن أحلم بأن السطوح الصقيلة هي تصوير للأبدية ووعدٌ بها... يصدر الضوء من ثمار كروية تحمل اسم «المصابيح». في كل قاعة سداسية، هناك اثنان من هذه المصابيح، موضوعان على نحو مستعرض. وهما يطلقان ضوءاً غير كاف، ولكنه لا يتوقف.

مثل جميع رجال المكتبة، سافرت في شبابي، ورحلت بحثاً عن كتاب، ربما كان فهرس الفهارس، والآن، حين لم تعد عيناي قادرتين على فك لغز ما أكتبه بنفسي، ها أنا أعدُّ نفسي للموت على بعد بضع مراحل عن القاعة السداسية التي ولدت فيها. وحين أموت، لن أُعدمَ الأيادي التقية التي سترمي بي فوق الحاجز، وسيكون ضريحي الهواءَ الذي لا يُسبر غوره، وسيغوص جسدي في العصور حتى يفسد ويتلاشى في الريح التي يطلقها السقوط الذي لا يتناهى. أؤكد أن المكتبة لا نهاية لها. ويحاجج المثاليون أن القاعات السداسية هي الشكل الضروري للفضاء المطلق، أو في الأقل، هي شكل إدراكنا لهذا الفضاء. وهم مقتنعون بأن القاعة الثلاثية أو الخماسية شيء لا يمكن تصوره. (يزعم المتصوفون أن أحوال وجدهم ونشوتهم تكشف لهم عن حجرة دائرية تنطوي على كتاب دائري عظيم يحيط كعبه المتواصل بجدران الغرفة، غير أن شهادتهم مشكوك فيها، وكلماتهم يسربلها الغموض. وهذا الكتاب الدائري هو الله). حسبي إذاً، في هذا الوقت، أن أكرر العبارة

Twitter: @ketab_n

السائرة: إن المكتبة هي كرة مركزها الدقيق في أية قاعة سداسية، ولا سبيل إلى الإلمام بمحيطها.

يحتوي كل جدار في كل قاعة سداسية على خمس خزانات كتب؛ يحمل كل رف فيها اثنين وثلاثين كتاباً متماثلة المقاس والقطع، ويتكون كل كتاب من أربعمائة وعشر صفحات، في كل صفحة أربعون سطراً، وينطوي كل سطر، كما هو واضح، على ما يقرب من ثمانين حرفاً أسود. وهناك أيضاً حروف أخرى على كعب كل كتاب، غير أن هذه الحروف لا تنمّ أو تدل على ما تقوله الصفحات. وأنا أعرف أن فقدان الارتباط هذا كان يبدو أمراً غامضاً. وقبل أن أوجز حل هذا الغموض (الذي ربما كان الكشف عنه، برغم ما فيه من مضامين مأساوية، أهم حدث في التاريخ كله)، أود أن أستعيد بعض المسلَّمات.

الأولى، أن المكتبة توجد أبدياً. وما من فكرٍ عقلي يستطيع التشكيك بهذه الحقيقة، التي تترتب عليها كنتيجة مباشرة لها الأبدية المستقبلية للعالم. فقد يكون الإنسان، الذي هو الكُتُبي الناقص، من صنع المصادفة، أو من خلق صنّاع حقودين، أما الكون، بما فيه من ترتيب أنيق، بخزاناته وكتبه الإلغازية، وسلالمه التي لا تكل من العابرين، ودورات مياهه للكتبي الجالس، فلا يمكن إلا أن يكون من عمل إله. وبغية تصور المسافة التي تفصل ما هو إنساني عما هو إلهي، يكفي أن يقارن المرء هذه الرموز الفجة الراعشة التي خطتها يدي الخطاءة على غلاف كتاب بالحروف الحية في داخله – حروف دقيقة، رهيفة، داكنة السواد، متناظرة بصورة

Twitter: @ketab_n

لا تضاهى.

الثانية، **أن هناك خمسة وعشرين رمزاً كتابياً**[1]. وهذا الاكتشاف مكّن البشرية، قبل ثلاثمائة سنة، من صياغة نظرية عامة عن المكتبة، وبالتالي كافية لحل اللغز الذي لم يتوصل إليه حدس، أي الطبيعة العشوائية التي لا شكل لها في جميع الكتب تقريباً. يتكون كتاب من الكتب، رآه والدي في القاعة السداسية في الدائرة رقم 15– 94 من الحروف م س هـ مكررة على نحو معكوس من السطر الأول إلى الأخير. وينطوي كتاب آخر (كثيراً ما يُعاد إليه في هذه المنطقة) على متاهة من الحروف، ولكن المرء يقرأ عليه في الصفحة ما قبل الأخيرة: **إن أهراماتك أيها الزمن**. وقد أصبح من المعروف أن بين كل سطر معقول أو عبارة مستقيمة مراحلَ من المعاضلة عديمة المعنى والهراء اللفظي والتفكك. (أعرف منطقة شبه وحشية يمتنع فيها الكتبيون عن العادة الخرافية العبثية في البحث عن معاني الكتب ويقارنونها بالبحث عن معاني الأحلام أو السطور العشوائية على راحة اليد... وهم يقرون أن مبتكري الكتابة كانوا يقلدون الرموز الطبيعية الخمسة والعشرين، لكنهم يصرّون على أن هذا الاستعمال عرضي، وأن الكتب في ذاتها لا تعني شيئاً. وهذا الرأي – كما سنرى– ليس بالرأي الزائف تماماً).

على مدى زمن طويل كان يُعتقد أن هذه الكتب المستغلقة تنتمي

(1) ليس في الأصل المخطوط أرقام ولا حروف كبيرة؛ وينحصر التنقيط بالفارزة والنقطة. وهاتان العلامتان والفضاء والحروف الاثنان والعشرون للأبجدية هي الرموز الخمسة والعشرون الكافية التي يشير إليها مؤلفنا المجهول (ملاحظة من الناشر).

Twitter: @ketab_n

إلى لغات ماضية أو بعيدة اندثرت. وإنه لصحيح أن أقدم الناس، من الكتبيين الأوائل، قد استفادوا من لغة مختلفة تماماً عن اللغة التي نتكلمها الآن، وإنه لصحيح أن اللغة تغدو لهجة على مسافة بضعة أميال على اليمين، ثم تستعصي على الفهم بارتفاع تسعين دوراً، أعيد القول إن كل هذا صحيح، لكن أربعمائة صفحة وعشراً من تنوع الحروف م س هـ لا يتطابق مع أية لغة، سواء أكانت لهجة أم راسباً بدائياً. اقترح بعض الكتبيين أن كل حرف يؤثر في الحرف المجاور، وأن قيمة م س ه في السطر الثالث على الصفحة الواحدة والسبعين ليست هي نفسها قيمة السلسلة نفسها في موقع آخر على صفحة أخرى؛ لكن هذا الطرح الغامض لم يلق قبولاً كبيراً. وفطن أناس آخرون إلى احتمال الكتابة السرية؛ فحظي هذا التخمين بالقبول كونياً، وإن لم يكتسب المعنى الذي صاغه به مبتكروه.

قبل خمسمائة سنة، عثر رئيس قاعة سداسية عليا على كتاب لا يقل تشويشاً عن بقية الكتب، ولكنه ينطوي على ما يقارب صفحتين من السطور المتماثلة[1]. عرَضَ لقيتَه على قارئ شفرات عابر، فأخبره أن السطور مكتوبة بالبرتغالية. وأخبره آخرون أنها يديشية. وفي غضون قرن، توصل الخبراء إلى أن اللغة كانت في الحقيقة لهجة لتوانية – سامودية

(1) في الأزمنة القديمة، كان هناك رجل واحد في كل ثلاث قاعات سداسية. غير أن الانتحار وأمراض الرئة خربت هذه النسبة. وتستعيد ذاكرتي مشاهد سوداوية تعز على الوصف: فقد كنت أحياناً أسافر ليالي بلا انتهاء في الممرات النازلة والسلالم الصقيلة، دون أن أقابل كتبياً واحداً.

Twitter: @ketab_n

من الغواراني المتأثرة بالعربية الفصحى. كما تم الكشف عن شفرات المحتويات أيضاً: أفكار عن التحليل بالمكونات، مشروحة بأمثلة عن متغيرات تكرار لا نهاية له. ومكّنت هذه الأمثلة أحد الكتبيين العباقرة من اكتشاف القانون الأساسي للمكتبة. فقد لاحظ هذا الفيلسوف أن جميع الكتب، مهما اختلفت وتباينت، تتكون من عناصر متماثلة: الفضاء، والنقطة، والفارزة، والحروف الاثنين والعشرين في الأبجدية. واستنتج حقيقة، أكدها العابرون جميعاً، وهي أنه **لا يوجد في المكتبة بأسرها كتابان متطابقان**. واستخلص من جميع هذه المقدمات التي لا تقبل الخلاف أن المكتبة «شاملة» – أي كلية وكاملة وتضم كل شيء– وأن رفوفها تحتوي على جميع التأليفات الممكنة للرموز الكتابية البضعة والعشرين (وليس هو بالعدد اللانهائي، وإن كان كبيراً)؛ أي كل ما يمكن أن يُعبَّرَ عنه، في جميع اللغات. فيها كل شيء: تاريخ المستقبل بالتفاصيل الدقيقة، السير الذاتية لكبار الملوك، فهرس أمين للمكتبة، وآلاف الآلاف من الفهارس الزائفة، والبرهان على زيف هذه الفهارس، والبرهان على زيف الفهرس الحقيقي، والإنجيل الغنوصي لباسيليدس، والشرح على هذا الإنجيل، وشرح شرح هذا الإنجيل، والقصة الحقيقية لموتك، وترجمة كل كتاب إلى أية لغة، وحشر أي كتاب في جميع الكتب، والمقالة التي كان يمكن أن يكتبها «بيده» (ولكنه لم يكتبها) عن أساطير الشعوب السكسونية، وكتب تاسيتوس الضائعة.

حين أُعلِنَ أن المكتبة تضم جميع الكتب، كان رد الفعل الأول

Twitter: @ketab_n

ارتياحاً لا يضاهى. فقد شعر جميع الرجال أنهم يمتلكون «كنزاً» سرياً لم يُمسسْ. فما من مشكلة شخصية أو كونية إلا ويوجد حلها البليغ في إحدى القاعات السداسية. وللعالم ما يبرره، إذ اتسع العالم فجأةً إلى أبعاد أمل لا حدود لها. في ذلك الوقت، كثر الحديث عن التبرئات: كتب في الدفاع والنبوءة، كانت تبرِّئ على مدى الأزمنة كلها أي إنسان في العالم وتحيط مستقبله بالأسرار العجيبة. فتخلى آلاف الجشعين عن قاعاتهم السداسية الجميلة التي كانت مخصصة لهم في الأصل، واندفعوا نازلين أو صاعدين، يستحثهم هدف باطل في العثور على تبرئة. وتنازع هؤلاء الحجيج في الممرات الضيقة، وهم يتذمرون باللعنات، ويمسكون بخناق بعضهم على السلالم الإلهية، مطوحين بالكتب الخادعة إلى ممرات التهوية، ليموتوا وقد رماهم إلى الفضاء رجال من مناطق نائية، وقد جُنَّ بعضهم... والتبرئات موجودة حقاً (فقد رأيت اثنتين منها، تشيران إلى أشخاص في المستقبل، أشخاص ربما لم يكونوا خياليين)، لكن من ذهبوا للبحث عنها أخفقوا في أن يتذكروا أن الحساب الاحتمالي لعثور المرء على براءته، أو نسخة مزورة من براءته، يقارب الصفر.

في الوقت نفسه، انبعث أمل باحتمال الكشف أيضاً عن أسرار البشرية الكبرى، أي أصل المكتبة وأصل الزمن. ومن المرجح أن تلك الأسرار الملغزة يمكن توضيحها بالكلمات، وإذا لم تكفِ لغة الفلاسفة، فلا بدَّ أن توفر المكتبة ذات الأشكال المتعددة اللغة الاستثنائية المطلوبة بما يلزم من مفردات وقواعد ضرورية لتلك اللغة. وها قد مرت أربعة

Twitter: @ketab_n

قرون، ولم يسأم الناس من البحث في القاعات السداسية... هناك باحثون رسميون، أو «محققون». رأيتهم يؤدون مهامهم: وهم يصِلون دائماً مرهقين إلى قاعة سداسية، ويتحدثون عن سلَّم أوشكَ أن يقتلهم، لفقدانه بعض العتبات، يتحدثون مع كتبي محلي عنً القاعات والسلالم، وبين الحين والآخر يلتقطون أقرب كتاب، ويورِّقونه، بحثاً عن كلمات ذميمة أو قبيحة. والواضح أن أحداً لا يتوقع العثور على شيء.

بالطبع، تبعت الأمل المفرط خيبة مفرطة. فقد غدا اليقين بأن رفاً ما في خزانة قاعة سداسية ما يحتوي على كتب ثمينة، وأن هذه الكتب المستعصية على التناول إلى الأبد، أمر لا يطاق تقريباً. اقترحت طائفة مجدِّفة أن يوقف البحث وأن يخلط الرجالُ الحروفَ والرموز حتى يتم، بضربة حظ غير محتملة، تأليف تلك الكتب المعتمدة. فوجدت السلطات نفسها مضطرة إلى إصدار أوامر صارمة. فاختفت الطائفة، لكنني رأيت في طفولتي شيوخاً كانوا يختفون لمدد طويلة من الزمن في المراحيض، ومعهم أقراص معدنية وأكواب نرد محظورة، يقلدون الفوضى الإلهية بخفوت.

وذهب آخرون، في طريق معاكس، فاعتقدوا أن المهمة الأولى تتمثل في إلغاء كل ما لا ينفع من الكتب. كانوا يجتاحون القاعات السداسية، ويعرضون تخويلات لم تكن زائفة دائماً، ويورقون كتاباً على مضض، ثم يحكمون بالدمار على رفوف برمتها من الكتب. وإلى غيظهم الزاهد، التصحيحي، نعزو الضياع الذي لا معنى له لملايين الكتب.

Twitter: @ketab_n

لقد حلَّت اللعنة باسمهم؛ لكن من ينوحون على «الكنوز» التي دمرها السعار المجنون يتغاضون عن حقيقتين معروفتين تماماً. الأولى هي أن المكتبة من السعة بحيث لا بدَّ أن يكون أي اختزال يمارسه البشر عليها متناهياً في الصغر. والثانية أن أي كتاب فريد، ولا يستبدل بغيره، ولكن (ما دامت المكتبة شاملة) فهناك دائماً مئات الآلاف من الصور غير الكاملة عنه، أي كتب لا تختلف عنه إلا بحرف واحد أو فارزة واحدة. وخلافاً للرأي السائد، أجرؤ على القول إن النتائج التي ترتبت على النهب الذي ارتكبه المتطهرون قد بولغ فيها بسبب الرعب الذي أحدثه هؤلاء المتعصبون. فقد استحثهم الحماس المقدس للوصول – يوماً ما من خلال جهد لا يكل – إلى الكتب في القاعة القرمزية – وهي كتب أصغر حجماً من المقاس الاعتيادي، وهائلة القدرة، ومصورة، وسحرية.

لدينا أيضاً معرفة بخرافة أخرى من ذلك الزمن: ألا وهي الاعتقاد بما كان يُسمَّى «رجل الكتاب». إذ كان يُزعَمُ أنه على رفٍّ ما في قاعة ما، لا بدَّ من وجود كتاب هو **جفر جميع الكتب الأخرى** ودليلها، ولا بدَّ أن كتبياً ما تفحص ذلك الكتاب، وهذا الكتبي بمنزلة إله. وما زالت توجد في لغة هذه المنطقة آثار تلك الطائفة التي عبدت ذلك الكتبي البعيد. وذهب كثير من الحجيج بحثاً عنه. على مدى مائة عام، سلك الناس مختلف السبل الممكنة بلا طائل. كيف كانت تلك القاعة السداسية السرية المقدسة التي آوته؟ اقترح بعضهم أن يجري البحث تراجعياً: لتحديد موضع الكتاب (أ)، ينبغي أولاً فحص الكتاب (ب)، الذي يشير إلى موضع العثور على

Twitter: @ketab_n

(أ)، ولتحديد موضع الكتاب (ب)، ينبغي أولاً فحص الكتاب (ج)، وهكذا إلى الأبد... هكذا أمضيتُ سنين عمري في مغامرات كهذه وبددتها. وعندي أنه لا يبدو من المستبعد أن يوجد كتاب شامل في رف ما من رفوف الكون[1]. وإني لأتوسل إلى الآلهة المجهولة أن يكون إنسانٌ ما – حتى لو كان إنساناً واحداً، قبل عشرات القرون– قد تفحص ذلك الكتاب وقرأه. وإذا لم أحظَ بالشرف والحكمة والسعادة في قراءة ذلك الكتاب، فلتكن هذه من نصيب آخرين. ولتوجد الجنة، حتى لو كان مكاني في الجحيم. لأعذَّبْ أنا وأُوثقْ بالأغلال وأُمحقْ، ولكن لتكن هناك لحظة واحدة أو مخلوق واحد تجد فيه مكتبتكم العظيمة مبرر وجودها.

يؤكد الكفرة أن قانون المكتبة لا يكمن في «المعنى»، بل في «انعدام المعنى»، وأن العقلانية (مهما تكن متواضعة، ولو بصورة تماسك خالص) ليست سوى استثناء إعجازي تقريباً. أعرف أنهم يتحدثون عن «المكتبة المحمومة، التي تهدد مجلداتها العشوائية باستمرار بالتحول إلى أخرى، وهكذا تؤكد الأشياء جميعاً، وتنكر الأشياء جميعاً، وتخلط الأشياء جميعاً». تبرهن هذه الكلمات، التي لا تزعم الفوضى وحسب، بل تتبناها وتمثل عليها أيضاً، على ذوق الكفرة الرديء وجهلهم الذي لا شفاء منه، كما نعرف جميعاً. والواقع أن المكتبة تشتمل على

(1) أعيد القول إنه يكفي للكتاب أن يكون ممكناً ليوجد. ولا يُستبعَد إلا الكتاب المستحيل. على سبيل المثال: لا يوجد كتاب يكون سلّماً أيضاً، وإن كانت هناك دون شك كتب تناقش هذه الإمكانية وتنكرها وتبرهن عليها، وكتب أخرى تتجاوب بنيتها مع بنية السلّم.

Twitter: @ketab_n

جميع البنى اللفظية، وجميع التنوعات التي تسمح بها الرموز الكتابية الخمسة والعشرون، لكنها لا تسمح بمحال مطلق واحد. ومن النافل أن نلاحظ أن أفضل المجلدات في القاعات السداسية الكثيرة التي أديرها بنفسي تحمل عناوين مثل «رعد منسرح»، أو «نشيج الجص»، أو مثل «أكساكساكساس ملو». وهذه العبارات، التي تبدو مفككة لدى الوهلة الأولى، عرضة دون شك «للقراءة» الجفرية أو الأمثولية، وما دامت القراءة، أي تفسير نسق الكلمات ووجودها، أمراً لفظياً في ذاته، وبالتالي يمكن افتراضه، فهي أمر متضمن أصلاً في مكان ما في المكتبة. على سبيل المثال، لا وجود لتأليف مثل (ضكملرتج) لم تتنبأ المكتبة الإلهية بوجوده ما لم تكن دلالته الرهيبة مخفية في لسان سري أو أكثر من ألسنتها. ولا يستطيع أحد أن ينطق بمقطع، لا يكون مفعماً بالرعشة والخشية، ولا يكون في واحدة من تلك اللغات، اسمٌ قديرٌ لإله ما. فالحديث يعني ركوب تحصيل الحاصل. وهذه الرسالة الكلامية العقيمة نفسها توجد أصلاً في واحد من المجلدات الثلاثين في الرفوف الخمسة في واحدة من القاعات السداسية التي لا تحصى، وهكذا يوجد ما يفندها أيضاً. (يستعمل العدد س من اللغات الممكنة المفردات نفسها وفي بعضها يقبل الرمز مكتبة التعريف الصحيح التالي: «نظام أبدي وكلي الحضور للقاعات السداسية»، لكن المكتبة – كشيء– هي رغيف خبز أو هرم أو أي شيء آخر، وللكلمات الست نفسها التي نعرِّفها بها تعريفات أخرى. وأنت يا من تقرأني، هل أنت واثق بأنك تفهم لغتي؟).

Twitter: @ketab_n

يفصلني التأليف المنهجي عن وضع البشرية الحاضر. لكن اليقين بأن كل شيء قد كُتب من قبل يجردنا من الوجود ويجعل حياتنا جميعاً بأسرها سراباً. أعرف مناطق يتعرى فيها الشباب أمام الكتب، ويقبلون صفحاتها كالوحوش، برغم أنهم لا يحسنون قراءة حرفٍ واحد. وقد عملت الأوبئة، والخلافات الهرطقية، والأسفار التي تنحط حتماً إلى لصوصية، عملها في إهلاك معظم السكان. وأعتقد أنني أشرت من قبل إلى الانتحار، الذي ما برح يتضاعف كل سنة. بالطبع، لعل الشيخوخة والخوف خدعاني، لكني أشكُّ في أن النوع البشري – هذا النوع الفريد– أوشك على الانقراض، في حين أن المكتبة ستظل إلى الأبد: مشرقة، متوحدة، لانهائية، لا تتحرك أبداً، مدرعة بالمجلدات الثمينة عديمة الجدوى التي لا تفسد والسرية.

لقد كتبت تواً كلمة «لانهائي». ولم أستخدم هذه الصفة بمحض العادة البلاغية؛ بل أقول إنه لا يتناقض مع المنطق أن نفكر بأن العالم لانهائي. ومن يعتقدون أن له حدوداً يفترضون أن الممرات والسلالم والقاعات السداسية سوف تنتهي في مكان أو أمكنة بعيدة، على نحو لا يُتصوَّر، وهذا هراء غير معقول. مع ذلك، فإن من يتصورون العالم بلا حدود يتناسون أن عدد الكتب الممكنة ليس باللامتناهي. وستواتيني الجرأة على اقتراح الحل التالي للمشكلة القديمة: المكتبة غير محدودة ولكنها دورية. لو أن عابراً أبدياً ارتحل في أي اتجاه، فسيجد بعد عدد من القرون، أن الكتب نفسها تتكرر بحسب الفوضى نفسها – وفي

Twitter: @ketab_n

تكرارها تغدو نظاماً: أي نظام الأنظمة. وإن عزلتي لتبتهج بهذا الأمل الأنيق[1].

مار ديل بلاتا، 1941

(1) لاحظت ليتيثيا ألفاريز دي توليدو أن المكتبة الشاسعة بلا جدوى. وإذا توخينا الدقة، فإن كل ما هو مطلوب هو مجلد واحد، من حجم قياسي، مطبوع بالحرف مقاس تسعة أو عشرة، وسوف يضم عدداً لانهائياً من الصفحات الصغيرة على نحو لا يتناهى. (في بواكير القرن السابع عشر، ذكر كافاليري أن أي متن صلب هو تراكب عدد لا نهائي من السطوح). لكن استعمال هذا المصغر الحريري لن يكون سهلاً: لأن كل صفحة ظاهرة ستنفتح على صفحات أخرى مماثلة ولن يكون للصفحة الوسطى التي لا يمكن تصورها «ظهر».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حديقة المسالك المتشعبة

إلى فكتوريا أوكامبو

في كتاب «تاريخ الحرب العالمية» (ص 22)، يروي لنا النقيب ليدل هارت أنه تم التخطيط لهجوم يشنه الحلفاء ضد خطوط الألمان في سير-مونتاوبن (تنفذه ثلاث عشرة فرقة بريطانية مدعومة بألف وأربعمائة قطعة مدفعية) ويجري يوم 24 تموز من عام 1916، ولكن تم تأجيله حتى صباح يوم 29 تموز. وهو يعلق أن الأمطار الغزيرة كانت السبب في ذلك التأخير، الذي لم تترتب عليه أية نتيجة مهمة. والبيان التالي، الذي أملاه وأعلنه ووقعه الدكتور يو تسون، وهو أستاذ سابق للغة الإنجليزية في «هوتشوله» في تسينغتاو، يلقي ضوءاً غير متوقع على هذه القضية. وقد فقدت الصفحتان الأوليان من البيان.

* * *

... ثم أغلقت سماعة الهاتف. فتذكرت على الفور الصوت الذي كان يتكلم الألمانية. فقد كان صوت النقيب ريتشارد مادن. كان حضور مادن في شقة فكتور رونيبرغ يعني نهاية لجهودنا (برغم أن ذلك بدا لي

Twitter: @ketab_n

ثانوياً، أو كان يجب أن يبدو ثانوياً)، ونهاية لحياتنا أيضاً. إذ كان هذا يعني أن رونيبرغ أُلقي القبض عليه، أو قُتِل[1]. وقبل غياب شمس ذلك اليوم، كان يجب أن ألاقي المصير نفسه. كان مادن حقوداً وقاسياً، أو هو بعبارة أدق اضطر إلى أن يكون قاسياً. فإيرلندي في خدمة الإنجليز، ويُشتبه بافتقاره الكامل إلى الحماس، إن لم نقل في خيانته، كيف له أن يفلت ولا يغتنم هذه الفرصة الاستثنائية: فرصة اكتشاف عميلين للإمبراطورية الألمانية، والقبض عليهما، وربما قتلهما؟ ذهبت إلى غرفتي في الطابق العلوي، أغلقت الباب وقفلته عبثاً. ورميت نفسي على السرير الحديدي الضيق، وبقيت ممدداً على ظهري. في الخارج غصت النافذة بالسطوح التي لم تتغير أبداً، وشمس السادسة المضببة. وجدتُ أن مما لا يُصدَّق أن يكون هذا اليوم، الخالي من النذر والتحذيرات، يوم موتي القاسي. برغم وفاة المرحوم والدي، برغم كوني سابقاً صبياً في حديقة متناظرة في هاي فنغ، هل كُتب عليَّ أن أموت الآن؟ فكرت بأن الأحداث كلها إنما تجري على شخص واحد، وهي تجري الآن تماماً. قرناً بعد قرنٍ، لا تجري الأحداث إلا في الحاضر. هناك بشر لا حصر لهم في الجو والبر والبحر، لكن ما يقع فعلاً إنما يقع لي وحدي... وضعت الذكرى التي لا تطاق لوجه مادن الحصاني الطويل حداً لهذه

(1) تعليق حقير وغريب. فالحقيقة أن الجاسوس البروسي هانز رابنر، المعروف باسم ألياس فكتور رونيبرغ، هو الذي سحب مسدساً آلياً حين ظهر النقيب ريتشارد مادن، ومعه أمر بالقبض على الجاسوس. فأحدث فيه مادن، مدافعاً عن نفسه، جروحاً كانت سبب موته فيما بعد (ملاحظة من الناشر).

Twitter: @ketab_n

التأملات. وفي خضم حقدي ورعبي (لم أعد أعبأ بالحديث عن الرعب، وقد خدعت ريتشارد مادن، وها هي رقبتي تحن إلى الحبل)، صرت أعرف أن المحارب المتعجل والجندي السعيد دون ريب لا يشك قطعاً في أنني أمتلك السر – سر الموقع الدقيق للمدفعية البريطانية في الحديقة المطلة على «أنكري». خفق طائرٌ في السماء الضبابية، فترجمته تلقائياً إلى طائرة، ثم تحولت الطائرة إلى طائرات كثيرة تحوّم في سماء فرنسا، وتمحق حديقة المدفعية بوابل من القنابل. لو كان بمستطاع فمي، قبل أن تخرسه رصاصة، أن يهتف بذلك الاسم بحيث يُسمَع في ألمانيا... لكن صوتي، صوتي الإنساني، كان ضعيفاً. كيف أجعله يصل إلى أذن الزعيم؟ أذن ذلك الرجل المريض الكريه الذي لا يعرف شيئاً عن رونيبرغ أو عني سوى أننا في «ستافوردشير»، الرجل الذي يجلس في مكتبه القاحل في برلين، متنقلاً بين الجرائد بلا نهاية، منتظراً منا الأخبار بلا طائل. قلت بصوت مرتفع: لا بدَّ أن أهرب. انتصبت بلا ضجيج، وبصمت مطبق، وكأن مادن يتربص بي عند الباب. دفعني شيء ما، ربما مجرد الرغبة في إظهار فقري المدقع لنفسي، بأن أفرغ جيوبي. فلم أجد إلا ما كنت أعرف أنني سأجده: الساعة الأمريكية، والسلسلة المطعمة بالنيكل، والعملة المربعة، وسلسلة المفاتيح المثيرة وعديمة الجدوى التي تضم مفتاح شقة رونيبرغ، ودفتر الملاحظات، ورسالة فكرت في تمزيقها فوراً (لكنني لم أفعل)، وقطعة خمسة شلنات، وشلنين وبعض القروش، وقلماً ملوناً بالأحمر والأزرق، ومنديلاً، ومسدساً به رصاصة واحدة.

Twitter: @ketab_n

عبثاً، أمسكت به وتحسست وزنه بيدي، لبث الشجاعة في نفسي. وعلى نحو غامض فكرت أن صوت إطلاقة المسدس يمكن أن يسمع من مسافة قصية. وخلال عشر دقائق، اكتملت خطتي. أخذت من دليل الهاتف اسم الشخص الوحيد الذي يقدر أن ينقل لي المعلومات، وهو يعيش في ضاحية فنتون، بمسافة أقل من نصف ساعة بالقطار.

أنا جبان. أستطيع قول ذلك، وقد نفذت خطة لا ينكر خطورتها وجرأتها إنسان. أعرف أنها كانت شيئاً رهيباً. ولم أقمْ به من أجل ألمانيا. فذلك البلد الهمجي لا يعنيني، خصوصاً مذ أكرهني على عار التجسس. فضلاً عن ذلك، فقد عرفتُ إنساناً إنجليزياً -متواضعاً- لا يقل في رأيي عظمة عن غوته. لم أتحدث معه أكثر من نصف ساعة، لكنه خلال تلك المدة كان غوته بحق... كلا، بل نفذتُ الخطة لأنني شعرت أن الزعيم ينظر نظرة الريبة إلى أبناء جنسي، أولئك الأسلاف الذين لا حصر لهم ممن يجري دمهم في عروقي. أردت أن أبرهن له أن إنساناً أصفر يستطيع إنقاذ جيوشه. وكان عليَّ أن أهرب من مادن. فيده وصوته يمكن أن يطرقا بابي عند أية لحظة. غيرت ملابسي بصمت، وألقيت التحية على نفسي في المرآة، وسلكت الطريق إلى السلم، وألقيت نظرة على الشارع الهادئ، ومضيت. ولم تكن محطة القطار بعيدة عن شقتي، غير أني فكرت أن الأفضل استئجار سيارة أجرة. قلت لنفسي إنني أموِّه على نفسي وأتنكر أكثر بهذه الطريقة، لكني في الحقيقة شعرت أني مرئي ومكشوف للمخاطر بلا نهاية في هذا الشارع المهجور. وأتذكر أنني

Twitter: @ketab_n

طلبت من السائق أن يقف قبل موقف المحطة بقليل. ونزلت من السيارة بتمهل متعمد يكاد يكون مؤلماً. أردت أن أذهب إلى قرية «أشغروف»، لكنني ابتعت تذكرة إلى محطة أبعد منها. كان على القطار أن يغادر بعد بضع دقائق، في الثامنة وخمسين دقيقة. فاستعجلتُ، لأن القطار التالي لن يغادر إلا في التاسعة والنصف. ولا يكاد يوجد أحد على الرصيف. مشيت بين العربات، أتذكر بعض الفلاحين، وامرأة ترتدي ملابس الحداد، وشاباً يقرأ في «حوليات» تاسيتوس، وجندياً جريحاً سعيداً. في النهاية أقلع القطار. ركض رجل كنت أعرفه بحنق، ولكن بلا طائل، على طول الرصيف. لقد كان النقيب ريتشارد مادن. تكومت مهدوداً مرتعشاً في زاوية المقعد، على أبعد ما يمكن عن النافذة الرهيبة.

انتقلت من حالة هلع إلى حالة سعادة غامرة تقريباً. قلت لنفسي إن دوري في المبارزة قد بدأ، وإنني كسبت المواجهة الأولى في التفوق على خصمي في هجومه الأول، وإن استمر أربعين دقيقة فقط، بمحض القدر. زعمت أن فوزاً صغيراً مثل هذا هو إيذان بالانتصار الساحق. زعمت أنه لم يكن فوزاً تافهاً، إذ لو لم تتح لي هذه الساعة الثمينة في جدول القطار، لكنت الآن في السجن أو في عداد الموتى. زعمت (بما لا يقل سفسطة) أن سعادتي المهزوزة تبرهن على أنني إنسان قادر على متابعة هذه المغامرة حتى نهايتها الموفقة. ومن ذلك الضعف استمددت قوة لن أتخلى عنها. أتوقع أن الإنسان سوف يستسلم كل يوم لفظائع جديدة، حتى لا يبقى سوى الجنود والعصابات. ولهم أقدِّم هذه النصيحة: **من اضطر أن يؤدي**

Twitter: @ketab_n

عملاً فظيعاً فيجب أن يتخيل نفسه وقد أنجزه حقاً، يجب أن يفرض نفسه على مستقبل لا يمكن تغييره كالماضي. وهذا ما فعلته، حين كانت عيناي – عينا إنسان ميت أصلاً– تتأملان دفق ذلك النهار، الذي ربما يكون آخر يوم في عمري، وتراقبان دبيب الليل القادم. زحف القطار منساباً وسط أشجار الرماد. تمهل قليلاً وتوقف، تقريباً في منتصف حقل. لم ينادِ أحد باسم المحطة. سألت بعض الصبية على الرصيف «أهذه أشغروف؟»، فهزوا رؤوسهم بالموافقة. فنزلت من القطار.

يضيء الرصيف مصباح، لكن وجوه الصبية بقيت في منطقة الظل. سألني أحدهم: «هل أنت ذاهب إلى بيت الدكتور ستيفن ألبرت؟»، ودون أن ينتظر إجابتي، قال آخر: «البيت بعيد قليلاً، لكنك لن تتيه إذا سلكت ذلك الطريق إلى اليسار، واستدرت يساراً مع كل تقاطع». رميت عليهم قطعة نقود (هي آخر ما أملك)، ونزلت على العتبات الحجرية، وبدأت في اختراق الطريق المهجور. يجري الطريق منحدراً قليلاً تحت تل، ولا يخلو من أوساخ. تقاطعت فوق رأسي أغصان الأشجار، وبدا كأن القمر المستدير يصر على رفقتي.

للحظة، فكرت في أن ريتشارد مادن قد يقاطع خطتي اليائسة ويظهر فيها بطريقة ما. لكني أدركت على الفور أن ذلك مستحيل. ذكرتني النصيحة بالانعطاف دائماً إلى اليسار بأن تلك هي الصيغة الشائعة في العثور على المرج المركزي في بعض المتاهات. فليس اعتباطاً أنني حفيد تسوي بن، ذلك الرجل الذي حكم إقليم يونّان وتخلى عن السلطة

Twitter: @ketab_n

الزمنية لكي يكتب رواية فيها من الشخصيات أكثر مما في هونغ لو مينغ، ولكي يخلق متاهة يتيه فيها الناس جميعاً. وقد قضى ثلاث عشرة سنة في تلك المهام اليائسة قبل أن يغتاله غريب، فلم يعد لروايته معنى، ولا عُثر على المتاهة. تحت الأشجار الإنجليزية، كنت أتأمل في تلك المتاهة المفقودة: تخيلتها كاملة لم تُنتهكْ على قمة جبل سرية، تخيلتها غارقة تحت حقول الأرز أو تحت الماء، تخيلتها لانهائية تتكون ليس من سرادقات ثمانية الجوانب ومسالك ملتوية وحسب، بل أيضاً من أنهار وأقاليم وممالك... تخيلت متاهة المتاهات، في الماضي والمستقبل بحيث تضم النجوم بطريقة ما. ضائعاً في هذه الأوهام الخيالية، نسيت مصيري- وكوني مطارداً. لفترة غير محددة من الزمن شعرت أنني منفصل عن العالم كمجرد مراقب له. الريف الحميم والمضبب، والقمر، وحلول المساء، كلها تنبض في داخلي. لم أشعر بالإرهاق، وأنا أهبط الطريق النازل بلطف. وكان المساء حميماً ولانهائياً.

بقي الطريق يهبط ويتفرع، بين المروج المضببة في الغسق. وبقيت موسيقى عالية النبرة ومقطعية تجيء وتروح، متحركة مع النسيم، توهنها الأوراق والمسافة. سيطرت عليَّ فكرة أن الإنسان قد يكون عدو إنسان آخر، عدو لحظات إنسان آخر، لكنه لن يكون عدو بلد، عدو الفراشات والكلمات والحدائق والجداول والأنسام. في خضم هذه الأفكار، وصلت إلى بوابة صدئة عالية. ومن خلال قضبان الحديد تبينت طريقاً تنتظم فيه أشجار الحور، وسقيفة أو سرادق من نوع ما. فجأة انتبهت

Twitter: @ketab_n

إلى شيئين، أولهما تافه، والثاني لا يُصدق تقريباً: فالموسيقى التي كنت أسمعها كانت تأتي من هذه السقيفة، أو السرادق، وكانت موسيقى صينية. لهذا السبب استسلمت لها لاشعورياً. ولا أتذكر إن كان هناك جرس، ضغطت على زره، أم أنني أعلنت عن وجودي بتصفيق يدي.

استمرت ممتمة الموسيقى متواصلة، ولكن من خلفية البيت الحميم، صار يقترب فانوس، ومن لحظة إلى أخرى، تخفى أضواؤه أو تخمدها أغصان الأشجار، ثم اتضح أنه فانوس ورقي، له شكل الطبل ولون القمر. كان يحمله رجل طويل القامة. لم أتبين وجهه، لأن الضوء أعماني. فتح البوابة وتكلم معي بلغتي ببطء.

«أرى أن هسي بينغ الرحيم قد كلف نفسه بالبحث عمن يعزي وحدتي. لا شك أنك تريد أن ترى الحديقة؟»

تعرفت على اسم أحد قناصلنا، فرددت محتاراً:

«الحديقة؟»

«حديقة المسالك المتشعبة».

التمع شيء ما في ذاكرتي، فتكلمت باطمئنان غير مفهوم.

«حديقة جدي تسوي بن».

«جدك؟ جدك النيّر؟ تفضل رجاءً».

كان المسلك النديّ يتعرج مثل مسالك طفولتي. وحين وصلنا، دخلنا إلى مكتبة فيها كتب من الشرق والغرب. تعرفت على عدة أجزاء مخطوطة مجلدة بالحرير الأصفر من موسوعة ضائعة جمعها الإمبراطور

Twitter: @ketab_n

الثالث من السلالة المنيرة، ولم تطبع أبداً. كان قرص أسطوانة يدور بالقرب من عنقاء نحاسية. أتذكر أيضاً مزهرية للعائلة الوردية، وأخرى أقدم منها بعدة قرون، بذلك اللون الأصفر الذي نسخه فخارونا من الفرس...

راقبني ستيفن ألبرت بابتسامة على وجهه. وكان، كما قلت سابقاً، فارع الطول، ذا ملامح حادة، وعينين رماديتين، ولحية غزاها الشيب. في ملامحه شيء من ملامح الراهب، وشيء من ملامح البحار. وأخبرني فيما بعد أنه كان مبشراً في تيانتسين «قبل استلهام أن يصير عالم صينيات».

جلسنا، أنا على أريكة كبيرة منخفضة، وأدار هو ظهره إلى النافذة وساعة دائرية ضخمة. قدرت أن مطاردي، ريتشارد مادن، لن يصل في أقل من ساعة. وأن خطتي المحبوكة تستطيع أن تنتظر.

قال ستيفن ألبرت:

«يا للحياة العجيبة، تسوي بن، حاكم الإقليم الذي ولد فيه، الرجل العالم بالفلك والتنجيم، ولا يكل عن تأويل الكتب القانونية، ولاعب الشطرنج، والشاعر والخطاط الشهير، يترك كل هذا ليؤلف كتاباً ويشيد متاهة. تخلى عن كل متع القمع والعدل والسرير الوثير والولائم، بل حتى عن العلم، وحبس نفسه في سرادق «العزلة الشفافة» لمدة ثلاث عشرة سنة. وعند موته، لم يجد ورثته شيئاً سوى كوم من المخطوطات. ولعلك تعرف أن العائلة أرادت أن تسلمها إلى النار، لكن مستشاره، وهو راهب تاوي أو بوذي، أصر على نشرها».

Twitter: @ketab_n

أجبت: «حتى اليوم، ما زال من ينحدرون من نسل تسوي بن يمقتون ذلك الراهب. لأن نشر تلك المخطوطات أمر عقيم. والكتاب هو كتلة لا شكل لها من المسودات المتناقضة. تصفحته ذات مرة فوجدت عجباً: يموت البطل في الفصل الثالث، ثم يبعث حياً في الفصل الرابع. أما فيما يتعلق بإنجاز تسوي بن الآخر، أعني المتاهة، فإن...».

قال ألبرت: «ها هي المتاهة»، وأشار إلى خزانة كتابة مطلية.

هتفت: «متاهة عاجية! نوع صغير حقاً من المتاهة...».

صحح لي: «متاهة رمزية. متاهة خفية للزمن. أنا، الإنجليزي الهمجي، أُوتيت المفتاح لهذا السر الظاهر. والآن، بعد انقضاء مائة سنة، لم يعد من الممكن استرداد التفاصيل الدقيقة، ولكن لا يصعب تخيل ما حدث. لا بدَّ أن تسوي بن عند لحظة من الزمن قال: سأعتكف لتأليف كتاب، وفي لحظة أخرى قال: سأعتكف لإنشاء متاهة. يتصور كل إنسان أن الأمرين مشروعان منفصلان. ما من أحد أدرك أن الكتاب والمتاهة هما شيء واحد بذاته. لقد نُصِبَتْ خيمة «العزلة الشفافة» في وسط حديقة مشتبكة. ولعل هذا هو الذي أوحى بفكرة المتاهة الطبيعية. ومات تسوي بن، ولم يجد أحد من جميع الأراضي المترامية التي كانت ملكه أين تقع هذه المتاهة. وقد أوحى لي تشوش الرواية، أعني خلطها بالطبع، أنها هي المتاهة. وأظهر لي أمران الحل النهائي لهذه المشكلة، الأول هو خرافة غريبة تزعم أن تسوي بن اقترح إيجاد متاهة لا تتناهى، والثاني شذرة من رسالة اكتشفتها».

Twitter: @ketab_n

نهض ألبرت. أدار ظهره لي عدة لحظات، فتح جرارة في خزانة الكتابة السوداء والمذهبة. وعاد يمسك في يده ورقة كانت قرمزية، لكن لونها استحال بمرور الزمن إلى وردي، رقيقة، مستطيلة. وهي مكتوبة بخط قلم تسوي بن الشهير. بلهفة ومن دون فهم، قرأت الكلمات التي دونها رجل تجري دماؤه في عروقي وكتبها بفرشاة صغيرة: «أترك لمختلف الأزمنة القادمة (لا كلها) حديقة مسالكي المتشعبة». دون أن أنبس بكلمة، أعدت الورقة إلى ألبرت. فاستمر قائلاً:

«قبل أن أكتشف هذه الرسالة، بقيت أتساءل كيف يمكن لكتاب أن يكون لانهائياً. لم أتخيل إلا كتاباً دورياً، دائرياً، كتاباً تكون صفحته الأخيرة هي بعينها الصفحة الأولى، وهكذا يمضي بلا انتهاء. تذكرت، أيضاً، الليلة في وسط «ألف ليلة وليلة»، حين تبدأ الملكة شهرزاد (من خلال خطأ سحري ارتكبه الناسخ) برواية قصة «ألف ليلة وليلة» نفسها، فتجازف بالوصول مرة أخرى إلى الليلة التي سوف ترويها فيها، وهكذا بلا نهاية. تخيلت أيضاً عملاً أفلاطونياً وراثياً ينتقل من الأب إلى الابن، يضيف فيه كل واحد فصلاً جديداً، أو يصحح بيد العناية الورعة عمل سابقيه. وقد أذهلتني هذه التخيلات، ولكن لم يبدُ أيٌّ منها متطابقاً، ولو من بعيد، مع الفصول المتناقضة لدى تسوي بن. وحين كنت في غمرة الحيرة، تلقيت من أوكسفورد الوثيقة التي رأيتها تواً. ولعلك تستطيع أن تتخيل أنني توقفت عند جملة «أترك لمختلف الأزمنة القادمة (لا كلها) حديقة مسالكي المتشعبة». وحالما قرأتها، فهمت أن

Twitter: @ketab_n

حديقة المسالك المتشعبة هي الرواية العشوائية نفسها. وقد أوحت لي عبارة «لمختلف الأزمنة القادمة (لا كلها)» بصورة تشعب في الزمان، لا في المكان. وأكدت إعادة قراءة للكتاب بأكمله هذه النظرية. في السرد كله، حين يواجه إنسان ما عدة بدائل، فإنه يختار واحداً ويلغي الخيارات الأخرى. في عمل تسوي بن غير القابل للسبر تقريباً، يختار جميعها في وقت واحد. وهكذا يخلق مختلف أشكال المستقبل، ومختلف الأزمنة التي تطلق بدورها أزمنة أخرى، فتتفرع وتتشعب. وهذا هو سبب التناقضات الكثيرة في الرواية. على سبيل المثال، يختزن فانغ سراً. يطرق غريب على بابه. فيقرر فانغ قتله. بالطبع، هناك نتائج محتملة متعددة. يمكن لفانغ أن يقتل الدخيل، أو يمكن للدخيل أن يقتل فانغ، أو يمكن أن يعيشا معاً، أو يموتا معاً، وهكذا وهكذا. في رواية تسوي بن، تحدث هذه الحلول الممكنة معاً، وكل واحد منها هو نقطة انطلاق لتشعبات أخرى. يحدث أحياناً أن تختلط مسالك هذه المتاهة. على سبيل المثال، تجيء أنت إلى هذا البيت، لكنك في أحد أشكال الماضي الممكنة عدوي، وفي آخر صديقي. وإذا أمكنك احتمال نطقي المتعثر بالصينية، فسوف نقرأ عدة صفحات من رواية جدك».

كانت سيماؤه، في ضوء دائرة المصباح الساطع، سيماء شخص قديم، وإن نمت على شيء ما عنيد، بل خالد. قرأ بتمهل دقيق نسختين من فصل ملحمي واحد. في الأولى، يتقدم جيش نحو المعركة حول ممر جبلي مهجور. يبث الرعب والصخور والظلمة احتقار الحياة في نفوس

Twitter: @ketab_n

الجنود، فيحرزون نصراً سهلاً. وفي الثانية، يتقدم الجيش نفسه نحو قصر كانت تجري فيه وليمة؛ فتبدو لهم المعركة الوهاجة استمراراً للحفل، فيظفرون بها بسهولة.

استمعت إلى هذه الحكايات القديمة بتوقير مناسب، ولعل الإعجاب بها في ذاتها أقل من الإعجاب بكونها من نتاج شخص من دمي، وأعادها لي إنسان من إمبراطورية بعيدة في الطور الأخير من مغامرة يائسة على جزيرة في الغرب. أتذكر الكلمات الأخيرة، التي تكررت في نهاية النسختين معاً كأمر سري: «هكذا حارب الأبطال، بقلب مطمئن وسيف مدمى. فقد سلّموا أنفسهم للقتل والموت».

بدءاً من تلك اللحظة شعرت حولي وفي داخلي بشيء ما خفي وغريب يحتشد. لم يكن احتشاد جيشين مختلفين يتوازيان ثم يتداخلان أخيراً، بل هياج أكثر انفلاتاً، وأكثر داخلية، يتصورانه على نحو ما. استمر ستيفن ألبرت:

«لا أعتقد أن سلفك الموقر كان يعبث بتنوعات عقيمة. لا أعتقد أنه ضحى بثلاث عشرة سنة من عمره في لعبة بلاغية لا تنتهي. في بلدكم الرواية جنس أدبي من الدرجة الثانية، بل إنها في زمن تسوي بن كانت جنساً محتقراً. وكان تسوي بن روائياً عبقرياً، لكنه كان أيضاً أديباً، رأى نفسه بالتأكيد أكثر من مجرد روائي. وتشهد شهادات معاصرية على هذا، ولا شك أن الوقائع المعروفة عن حياته تؤكد ميوله الميتافيزيقية والصوفية. وقد استحوذ الحوار الفلسفي على الجزء الأكبر من روايته.

Twitter: @ketab_n

وأنا أعرف أنه ما من مشكلة من المشكلات جميعاً أزعجته واستغرقته مثلما استغرقته المشكلة العويصة في الزمن. تخيل أن المشكلة الوحيدة التي شغلته هي المشكلة التي لا تظهر على صفحات «حديقته». بل هو لم يستخدم الكلمة أبداً. كيف تفسر هذا الإلغاء المقصود؟»

قدمت عدة حلول، لكنها جميعاً بدت غير كافية. ناقشناها، وأخيراً قال ستيفن ألبرت:

«في لغز جوابه الشطرنج، ما الكلمة المحظورة؟». فكرت لحظة ثم أجبت:

«إنها كلمة شطرنج».

قال ألبرت: «بالضبط. **حديقة المسالك المتشعبة** هي لعبة ملغزة ضخمة، أو أمثولة، موضوعها الزمان، وهذا الهدف السري يمنع تسوي بن من مجرد ذكر اسمه. إلغاء الكلمة تماماً، والإشارة إليها بالعبارات الفجة والاستعارات الواضحة ربما يكون خير وسيلة لجلب الانتباه لها. إذاً فهذه هي الطريقة الملتوية التي آثرها تسوي بن المعتم عند كل منعطف من منعطفات روايته التي لا تتوقف. لقد قارنت بين مئات المخطوطات، وصححت الأخطاء التي ارتكبها نساخ جهلة، وتوصلت إلى خطة هذا السديم العشوائي، ونجحت، أو أعتقد أنني نجحت في استرداد نظامها الأصلي. لقد ترجمت العمل بكامله، وأستطيع القول إن كلمة «زمان» لم ترد مطلقاً في الكتاب بأسره. والتفسير واضح: **حديقة المسالك المتشعبة** هي صورة منقوصة، لكنها ليست زائفة، عن الكون كما تصوره تسوي

Twitter: @ketab_n

بن. وخلافاً لنيوتن وشوبنهاور، لم يؤمن سلفك بزمان واحد مطلق، بل آمن بسلسلة لانهائية من الأزمنة، بشبكة تتسع وتنمو على نحو محير من الأزمنة المتفارقة والمتداخلة والمتوازية. وهذا النسيج من الأزمنة، التي يقترب بعضها من بعض ويتشعب، ويتقاطع، ويجهل بعضها بعضاً عبر العصور، ينطوي على جميع الاحتمالات. نحن لا نوجد في أغلب هذه الأزمنة، في بعضها توجد أنت، ولا أوجد أنا، وفي غيرها أوجد أنا، ولا توجد أنت، وفي أخرى غيرها، نوجد كلانا. في هذا الزمن، الذي آثرتني به المصادفة، جئت أنت إلى بوابة بيتي. في آخر، حين تأتي إلى بيتي وتمر بالحديقة تجدني ميتاً، وفي آخر، أقول هذه الكلمات نفسها، لكنني مجرد خطأ، أو مجرد شبح».

قلت، بما لا يخلو من ارتعاشة في صوتي: «على أية حال، أنا في غاية الامتنان لك، وأقدر إعادة خلقك لحديقة تسوي بن».

همس بابتسامة: «العفو. يتشعب الزمن على الدوام إلى أشكال مستقبل لا حصر لها. في أحدها أنا عدوك».

مرة أخرى شعرت بذلك الاحتشاد الذي ذكرته. بدا لي أن الحديقة الندية التي تحيط بالبيت كانت منقوعة بلا انتهاء بأناس غير مرئيين. جميعهم كانوا أنا وألبرت، منشغلين، سريين، متعددي الأشكال، في أبعاد أخرى للزمن. رفعت عيني فاختفى الكابوس القصير. في الحديقة السوداء والصفراء كان هناك رجل يمشي على المسلك، لكنه كان قوياً كتمثال، وهو النقيب ريتشارد مادن.

Twitter: @ketab_n

أجبتُ: «المستقبل يوجد الآن، لكني صديقك. هل لي أن أرى الرسالة مرة أخرى؟»

نهض ألبرت مرة ثانية. وانتصب بطوله وهو يفتح جرارة خزانة الكتابة الطويلة، أدار ظهره لي للحظة. كان المسدس معبئاً. أطلقت النار بمنتهى العناية. فسقط ألبرت من دون نأمة واحدة، في الحال. أقسم أنه مات فوراً، كأنما بصعقة برق.

وما تبقى غير واقعي وغير مهم. اندفع مادن إلى الغرفة وألقى القبض عليَّ. وحُكِمَ عليَّ بالشنق. انتصرت انتصاراً مخزياً: أوصلت إلى برلين الاسم السري للمدينة التي ينبغي مهاجمتها. وقد دُمِّرت بالأمس، قرأت الخبر في الصحيفة نفسها التي كانت تحاول أن تفكَّ لإنكلترا بأسرها لغز قاتل عالم الصينيات البارز ستيفن ألبرت على يد مجهول اسمه يو تسون. أما الزعيم فقد حل اللغز. عرف أن مشكلتي تكمن في أن أصرخ (في ضجيج الحرب المسعورة) باسم المدينة التي تدعى «ألبرت»، ولم يُتحْ أمامي من وسيلة سوى قتل شخص يحمل ذلك الاسم. لا يعرف، ولا يستطيع أحد أن يعرف، مقدار أسفي ومللي اللانهائيين.

Twitter: @ketab_n

احتیالات
(1944)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تمهيد

وإن كانت القصص المجموعة في هذا الكتاب أقل بلادة، فهي لا تختلف عن القصص في المجموعة التي سبقتها. وربما كانت قصتان فيها تستدعيان بعض التعليق: «الموت والبوصلة»، و«ذاكرة فونس الحية». والثانية منهما هي استعارة مطوّلة عن الأرق. أما الأولى فبرغم الألمانية أو الإسكندنافية فيها، فتحدث في بوينس آيرس الأحلام؛ فـ«ريو دي تولون» المحرَّف هو «باسيو دي خوليا»، و«ترستي لي روي» هو الفندق الذي تلقى فيه هربرت آش المجلد الحادي عشر من الموسوعة الخيالية، وإن كان من المرجح أنه لم يقرأه. وبعد كتابة هذه القصة، فكرت أنه يجدر بي توسيع الزمان والمكان اللذين تغطيهما القصة: إذ يمكن توريث الثأر إلى آخرين، ويمكن حساب فترات الزمن بالسنوات، أو ربما بالقرون، ويمكن أن يُنطق الحرف الأول من الاسم في آيسلندا، والثاني في مكسيكو، والثالث في هندوستان. وهل بي حاجة إلى القول إن هناك أولياء وقديسين بين الهسيديين، وأن التضحية بأربع حيوات من أجل الحصول على أربعة حروف يتطلبها الاسم هو مجرد خيال أملاه شكل قصتي.

Twitter: @ketab_n

حاشية عام 1956: لقد أضفت ثلاث قصص إلى هذه المجموعة: «الجنوب» و«عبادة العنقاء» و«النهاية». وبمعزل عن شخصية واحدة، هي شخصية ريكابارين، التي ينفع جمودها وسلبيتها كمصدر للمقارنة، فلا شيء، أو تقريباً لا شيء، في المساق الوجيز للقصة الأخيرة من ابتكاري، فكل ما فيها موجود ضمناً في كتاب شهير، وإن كنت أول من يكشفه، أو في الأقل يعلن بصريح العبارة أنه يكشفه. وفي أمثولة العنقاء، فرضت على نفسي التلميح إلى حادثة عادية -السر- وعلى نحو متردد وبالتدريج، ولكن أيضاً في النهاية، ثبت أنه سرٌّ صريح معلن، ولست أدري إلى أي مدى أفلحت في بيانه. وعن «الجنوب»، التي ربما كانت أفضل قصصي، لن أقول للقارئ سوى أنه من الممكن قراءتها معاً كسرد مباشر لأحداث روائية، وكذلك بطريقة أخرى تماماً.

تتكون قائمة الكتّاب المتغايرين الذين أعيد قراءتهم باستمرار من: شوبنهاور، دي كوينسي، ستيفنسن، ماوثنر، شو، تشسترتن، ليون بيلوي. وأعتقد أنني استوحيت تأثيراً بعيداً من آخر المذكورين في الفنطازيا المسيحية «صور يهوذا الثلاث».

خ. ل. ب.

بوينس آيرس

29/آب/ 1944 – 1956

Twitter: @ketab_n

ذاكرة فونس الحية

أتذكره (برغم أنني لا يحق لي الحديث عن فعل التذكر المقدس، إذ لم يتذكر على وجه الأرض إلا إنسان واحد، وقد مات ذلك الإنسان)، وفي يده زهرة آلام داكنة، ينظر إليها، كما لم ينظر إليها إنسان من قبل، وإن كانت تلوح للناظرين من أول شفق الفجر حتى آخر غسق الليل، على مدى حياة كاملة. أتذكره بوجهه الجامد، ذي الملامح الهندية، و«تنائيه» الفريد وراء السيجارة. أتذكر (على ما أعتقد) الأصابع الرهيفة القوية كأصابع فاتل الجلود. أتذكر على مقربة من يديه قدح شراب الماتي، يحمل على صفحته أسلحة الساحل الشرقي. أتذكر على نافذة البيت ستارة حصيرة صفراء، عليها منظر مستنقع معتم. أتذكر صوته بوضوح، ذلك الصوت البطيء، الرزين، الأغن، الذي يميز نبرة أهل الساحل الشرقي حينئذ، الخالي من هسيس الحروف الإيطالية السائد الآن. لم أره سوى ثلاث مرات، كان آخرها في عام 1887... كنت أميل إلى الفكرة القائلة بأن كل من عرفه لا بدَّ أن يكتب عنه يوماً ما، وقد تبدو شهادتي أوجز النبذ (وبالتأكيد أكثرها فقراً) في الكتاب المزمع نشره، لكنها ليست أقلها حيادية. ولسوء الحظ، فإني أرجنتيني، وبالتالي غير

Twitter: @ketab_n

قادر على الانسياق إلى كيل المدائح، التي هي الجنس الأدبي الإلزامي في أورغواي، ولا سيما حين يكون موضوعها أورغواوياً.

«أديب»، «غندور»، «مدلل بوينس آيرس»، لم ينطق فونس أياً من هذه الكلمات المهينة بحقي، لكني أعرف بيقين كبير أنني كنتُ أمثّل عنده كل تلك المزايا المنحوسة. كتب بيدرو لياندرو إيبوتشي أن فونس كان بشيراً بعرق السوبرمان – أي أنه كان «زرادشت عامياً لم يروَّض»، ولن أناقش هذه النقطة، لكن المرء يجب ألا ينسى أنه كان أيضاً ريفياً من ضواحي فراي بنتوس، بما هم عليه من قصور لا شفاء منه.

أول ذكرياتي عن فونس واضحة تماماً. أراه ذات ظهيرة في آذار أو شباط من عام 1884. تلك السنة أخذني أبي لقضاء الصيف في فراي بنتوس. كنت عائداً من المزرعة في سان فرانسيسكو بصحبة ابن عمي برناردو هايدو. كنا نعتلي جوادين، ونحن نغني بمرح، ولم يكن اعتلاء الجوادين سبب مرحنا الوحيد. فبعد نهار متقد، جثمت على السماء عاصفة مهولة أرجوانية اللون، دفعتها ريح الجنوب. خبطت الريح الأشجار بوحشية، وأفعمني خوف (أو رجاء) بأن انهمار المطر البدائي سيفاجئنا في خلاء الريف. كنا نستبق استباقاً مع العاصفة. واهتدينا إلى قعر طريق ضيق يجري بين حائطين من آجر مبني فوق الأرض. فجأةً اظلمت السماء، سمعت فوقي وقع خطى متسارعة، تكاد تكون سرية – رفعت عيني ورأيت صبياً يجري على الممر المتهدم الضيق في الأعلى، كأنما هو يمشي فوق جدار متهدم ضيق. أتذكر البنطال المهلهل، المشدود

Twitter: @ketab_n

من الأسفل، ونعلي القنب، أتذكر السيجارة في وجهه المتصلب، وهو يبرز في خضم السحابة السوداء المزبدة. فجأة هتف به برناردو قائلاً: – كم الساعة الآن، يا إرينيو؟ ودون أن يتطلع إلى السماء، دون ثانية من توقف، أجاب الفتى: الثامنة إلا أربع دقائق، أيها الشاب برناردو خوان فرانسيسكو. وكان صوته حاداً، ساخراً.

كنتُ من شرود الذهن بحيث إن الحوار الذي ذكرته لم يسترعِ انتباهي لو لم يعدْه عليَّ ابن عمي، الذي أثاره، على ما أعتقد، الزهو المحلي والرغبة في إظهار عدم اكتراثه لرد الفتى الذي ذكر اسمه الثلاثي.

أخبرني أن الصبي في الممر يدعى إرينيو فونس، وأنه معروف بعدد من الأطوار الغريبة، كجفائه عن الناس، ومعرفته الدقيقة بالوقت كدقة الساعة. وأضاف أن إرينيو كان ابن ماريا كليمنتينا فونس، وهي كواية في المدينة، وأن أباه، فيما يقول بعض الناس، كان إنجليزياً اسمه أوكونور، وهو طبيب في مصنع التمليح، بينما يزعم آخرون أنه مروض خيول أو كشاف، من إقليم السالتو. وقد عاش إرينيو مع أمه، كما قال ابن عمي، منزوياً في بيت ريفي في قرية لوريلز.

في السنتين 1885 و 1886، قضينا الصيف في مدينة مونتيفديو. ورجعنا إلى فراي بنتوس عام 1887. وكان من الطبيعي أن أستفسر عن حال كل من أعرفه، وأخيراً عن «فونس عارف المواقيت». وقد قيل لي إن جواداً هائجاً رماه أرضاً في ضيعة سان فرانسيسكو، وتركه كسيحاً بلا أمل. أتذكر الإحساس بالسحر المقلِق الذي خلّفه فيَّ ذلك الخبر:

Twitter: @ketab_n

ففي المرة الوحيدة التي رأيته فيها كنا على ظهور الجياد، وكان هو على مكان مرتفع، هزَّني هذا الحدث الجديد، الذي رواه لي ابن عمي، كأنما هو حلمٌ مُزِجَ من عناصر الماضي. قيل لي إن إرينيو لم يعد يغادر كوخه أبداً، لكن عينيه ظلتا معلقتين على شجرة التين في الخلف، أو على نسيج العنكبوت. وعند حلول المساء، يسمح بأن يُحمل إلى النافذة. ولقد كان شاباً يتباهى بنفسه حتى صار يتظاهر بأن سقوطه الكارثي كان مجلبة لحسن الحظ فعلاً... ولقد رأيته مرتين من وراء قضبان نافذته الحديد، التي عززت من حالة سجنه الأبدي: مرة مضطجعاً بلا حراك، وعيناه مغمضتان، والمرة الثانية بلا حراك أيضاً، مستغرقاً في تأمل وريقة خزامى عطرة الرائحة.

في ذلك الوقت، شرعتُ، بما لا يخلو من زهو، بدراسة اللاتينية دراسة منهجية. وضمت حقيبتي كتاب (De viris illustrabus) بقلم لوموند، وكتاب (Thesaurus) بقلم كيتشرات، و«شروح» قيصر، وجزءاً فردي الترقيم من «التاريخ الطبيعي» لبليني، مما كان (وما زال) يتجاوز موهبتي المتواضعة في تعلم اللاتينية. وفي قرية صغيرة، ما من شيء يظل سراً، ولذلك سرعان ما علم إرينيو، في مزرعته الصغيرة على الضواحي، بنبأ وصول هذه الكتب الغريبة. بعث لي رسالة وعظية، متأنقة، ذكر فيها لقاءنا، الذي كان سريعاً مع الأسف، «في اليوم السابع من شباط من عام 1884»، ولمح إلى الخدمات الجليلة التي قدّمها السيد غريغوريو هايدو، عمي، الذي توفي في تلك السنة، إلى الوطنيين في حملة إيتوزنغو

Twitter: @ketab_n

المجيدة، والتمس استعارة أي واحد من الكتب المذكورة، مصحوباً بقاموس «من أجل فهم أفضل للنص الأصلي، لأنني أكاد أجهل اللاتينية جهلاً مطبقاً حتى الآن». ووعد بإعادتها في وضعية جيدة على الفور تقريباً. كان الخط رائعاً، والحروف مصوغة صياغة استثنائية، والإملاء بحسب الإملاء الذي أوصى به أندرس بيلو: كتابة حرف (i) بدلاً من (y)، و(j) بدلاً من (g). بالطبع، في البداية تصورت أن في الأمر دعابة من نوع ما. لكن أبناء عمومتي أكدوا لي أن هذه هي «مزايا إرينيو». ولم أدرِ هل أعزو إلى التبجح أم الجهل أم الحماقة فكرة أن اللاتينية الصعبة لا تتطلب من وسيلة أخرى سوى القاموس لتعلمها، ولكي أحرِّره من أوهامه، أرسلت له كتاب كيتشرات (Gradus ad Parnassum) وبليني.

في 14 شباط، تلقيت برقية من بوينس آيرس تستحثني على العودة إلى البيت مباشرة؛ إذ كان والدي «موعوك الصحة». اللهم عفوك، غير أن وجاهة تلقي برقية عاجلة، والرغبة في التواصل مع فراي بنتوس كلها، والتناقض بين شكل النبأ السلبي وإطلاقية العبارة الظرفية، وإغراء إضفاء الدرامية على أحزاني عن طريق التظاهر برباطة جأش رجولية– لعل ذلك كله أذهلني عن أي احتمال لألم حقيقي. وحين كنت أجمع حقيبتي، تذكرتُ أنني لم أستردَّ بعد كتاب (Gradus ad Parnassum) والجزء الأول من أعمال بليني. كان من المقرر للقارب «ساتورن» أن يبحر في الصباح التالي، وفي ذلك المساء، تمشيت إلى بيت فونس. وأدهشني أن الليل لا يقل كآبة عن النهار.

Twitter: @ketab_n

في البيت الصغير المتواضع، فتحتْ أم فونس الباب لي.

أخبرتني أن إرينيو في الغرفة الخلفية، وأنني يجب ألا أنزعج إذا وجدت الغرفة مظلمة، ما دام إرينيو يقضي ساعات فراغه دون إشعال شمعة. اجتزتُ فناء الحصى المرصوف، والممر الصغير، ووصلت إلى الفناء الثاني. كانت كرمة عملاقة تغطي على كل شيء، ولذلك بدت الظلمة مطبقة تماماً. فجأة، سمعت صوت إرينيو العالي، الساخر. كان يتكلم اللاتينية، وكان الصوت (الذي خرج من الظلمة) يتمتع بلذة واضحة في قراءة مقالة، أو صلاة، أو رقية. ترددت أصداء المقاطع اللاتينية على الفناء الأرضي؛ وقد جعلها ذعري تبدو كأنها مستغلقة ولا متناهية. بعد ذلك، في حوار تلك الليلة المهول، عرفت أنها تشكل المقطع الأول من الفصل الرابع والعشرين من الكتاب السابع من «التاريخ الطبيعي» لبليني. وموضوع هذا الفصل هو الذاكرة؛ وآخر الكلمات فيه هي:

Ut nihil non iisdem verbis redderetur auditum.

دون أدنى تغيير في نبرة صوته، دعاني إرينيو إلى الدخول. كان يتمدد على سريره، وهو يدخن. ويبدو لي أنني لم أرَ وجهه حتى إطلالة الفجر؛ حين أعود بنظري إلى الوراء، أعتقد أنني أتذكر التماعة سيجارته الخاطفة. كانت الغرفة تضوع برائحة عطنة غامضة. جلست، ورويت له قصة البرقية ومرض والدي.

وهنا أصل إلى أصعب نقطة في قصتي. لأن بيت القصيد في القصة كلها (والأفضل أن يعرف قرائي ذلك من البدء) يكمن في ذلك الحوار

Twitter: @ketab_n

الذي جرى قبل نصف قرن. لن أحاول إعادة صياغة كلماته، التي لا يمكن استعادتها. بل سأحاول، بقدر ما أستطيع من الإخلاص، أن أوجز الأشياء الكثيرة التي أخبرني بها إرينيو. والخطاب المباشر بعيد وضعيف، وأنا أعرف أنني سأضحي بالفاعلية التأثيرية لحكايتي. ولا أطلب من القراء إلا أن يحاولوا أن يستمعوا في أخيلتهم إلى تلك الجمل المتقطعة التي خيَّمت تلك الليلة.

بدأ إرينيو يعدد، في اللاتينية والإسبانية، حالات الذاكرة العملاقة التي يذكرها «التاريخ الطبيعي»: قورش، ملك الفرس، الذي كان يستطيع أن ينادي على كل جندي في جيوشه باسمه الشخصي؛ مثراداتس، الذي حقق العدالة في إمبراطوريته التي تتكلم اثنتين وعشرين لغة؛ سيمونيدس، مبتكر فن التذكر؛ ميترودورس، الذي تعلم فن أن يعيد بإتقان ما سمعه مرة واحدة. وبإخلاص واضح، تعجب فونس أن تُعَدَّ أشياء كهذه عجيبة. أخبرني أنه قبل تلك الظهيرة الممطرة حين رماه الجواد الأبلق الجامح، كان كأي مسيحي، أعمى، أصم، مشوشاً، خلواً من الذاكرة. (حاولت أن أذكِّرَه بإدراكه الدقيق للزمان، وتذكره لأسماء الأعلام، لكنه لم يعرني اهتماماً). قال إنه عاش تسعة عشر عاماً كأنما في حلم: كان ينظر بلا رؤية، ويصغي بلا سماع، فينسى كل شيء تقريباً. عند سقوطه من الجواد، فقد الوعي؛ وحين استرد وعيه، كان الحاضر لا يطاق تقريباً في ثرائه وسطوعه، ويصح الشيء نفسه على أكثر الذكريات قدماً وأكثرها تفاهة. وبعد قليل من الوقت أدرك أنه صار كسيحاً. غير

Twitter: @ketab_n

أن هذا الأمر لم يثر اهتمامه. لأنه فكّر (أو شعر) أن فقدان الحراك هو أقل ثمن ينبغي سداده. وها هو إدراكه وها هي ذاكرته معصومان من الخطأ.

بنظرة سريعة، نرى أنا وأنت ثلاث زجاجات خمر على المنضدة، أما فونس فيرى جميع الأفنان والعناقيد والأعناب في الكرمة. كان يتذكر أشكال الغيوم في الجنوب عند الفجر يوم الثلاثين من نيسان عام 1882، ويستطيع أن يقارنها في تذكره بالخطوط الرخامية التي رآها ذات مرة على غلاف كتاب مجلد، وبالخطوط التي ينثرها مجداف ارتفع عن الماء في النهر الأسود عشية معركة «كبراتشو». ولم تكن هذه التذكارات بسيطة؛ فكل صورة بصرية ترتبط بإحساسات عضلية، وإحساسات حرارية، إلخ. كان يستطيع إعادة بناء أحلامه جميعاً وأخيلته جميعاً. مرتين أو ثلاثاً تمكن من إعادة بناء يوم بكامله. قال لي: **لديَّ وحدي من الذكريات في نفسي أكثر مما لدى جميع الناس مذ كان العالم عالماً**. ومرة قال: **أحلامي تشبه ساعات يقظتكم**. وقال ثالثة، عند الفجر: **ذاكرتي، يا سيدي، مثل كوم قمامة**. رَسْم دائرة على سبورة، أو مثلث متساوي الساقين، أو معين – كل هذه أشكال نستطيع أن نحدسها تماماً؛ أما إرينيو فيقوم بذلك مع الشَّعَر الذي يتمايل في ناصية مهر، مع قطيع ماشية على صفحة الجبل، مع ألسنة اللهب والرماد المشتعلة التي تدق على الحصر، مع الوجوه الكثيرة لرجل يموت عند اليقظة. ولست أدري كم نجماً رأى في السماء.

تلك كانت الأشياء التي أخبرني بها، وقد بدا حينئذ مثلما في أي وقت آخر أنها بمنجاة من الشك. في تلك الأيام لم تكن هناك سينما ولا

Twitter: @ketab_n

فونوغراف بعد، مع ذلك، يبدو من الغريب، بل مما لا يُصدق، أن أحداً لم يفكر بإجراء تجربة على فونس. والحق أننا نعيش بتأجيل ما يمكن تأجيله، ربما ليقيننا أننا جميعاً نعرف أننا خالدون، وعاجلاً أو آجلاً، سيقوم كل إنسان بالأشياء جميعاً، وبمعرفة كل ما يمكن أن يُعرف.

استمرَّ صوت فونس يطلع من الظلمة.

أخبرني أنه قرابة عام 1886، ابتكر نظاماً جديداً أصيلاً في التعداد، وأنه خلال بضعة أيام تخطى أربعة وعشرين ألفاً. لم يدونه، لأن ما يفكر به مرة واحدة لا يمكن أن يُمحى. وأعتقد أن الدافع الأول لعمله يكمن في استيائه من أن ثلاثة وثلاثين تتطلب رمزين وثلاث كلمات، وليس كلمة واحدة ورمزاً واحداً. وطبّق، فيما بعد، مبدأه الشاذ الغريب على أرقام أخرى. فبدلاً من سبعة آلاف وثلاثة عشر، صار يقول، مثلاً: «مكسيمو بيريز»، وبدلاً من سبعة آلاف وأربعة عشر، صار يقول: «سكة الحديد»، واختزل أرقاماً أخرى بعبارات مثل: «لويس ميليان لافنور»، «أوليمار»، «الكبريت»، «النوادي»، «الحوت»، «الغاز»، «القِدْر»، «نابليون»، «أوغسطين دي فيديا». وبدلاً من خمسمائة، صار يقول: تسعة. كان لكل كلمة رمزها الخاص اللصيق بها، كنوع من المؤشر عليها، والأواخر معقدة غاية التعقيد... حاولت أن أشرح لفونس أن هذه الملحمة من الكلمات المفككة الأوصال تقف على النقيض تماماً من نظام الأرقام. قلت له إن القول «ثلاثمائة وخمسة وستين» يعني ثلاث مئات، وست عشرات، وخمسة آحاد؛ وهو تحليل لا يتوفر في أرقام مثل «الطماطم

Twitter: @ketab_n

السوداء» أو «بطانية اللحم». لكن فونس لم يفهمني، أو لم يرغب في أن يفهمني.

في القرن السابع عشر، آمن لوك (وأنكر) لغة مستحيلة يكون فيها لكل شيء مفرد – كل حجر، كل طائر، كل غصن– اسمه الخاص به، وفكّر فونس ذات مرة بلغة مشابهة، لكنه أعرض عن الفكرة باعتبارها عامة جداً، وغامضة جداً. والحقيقة أن فونس لم يتذكر فقط كل ورقة على كل شجرة في كل غابة، بل كان يتذكر أيضاً كل مرة من المرات التي يفكر فيها بتلك الورقة أو يتخيلها. وقد قرَّ قراره على اختزال تجربته الماضية بأسرها إلى سبعين ألف ذكرى، يعطي كل واحدة منها رقماً محدداً. ولكن ثناه اعتباران عن هذا الأمر: إدراكه أن هذه المهمة لا تنتهي، وإدراكه أنها عقيم. ورأى أنه في ساعة موته لن يكون قد انتهى من تصنيف جميع ذكريات طفولته.

والمشروعان اللذان أشرت إليهما (المعجم اللانهائي للسلسلة الطبيعية للأعداد، والفهرسة العقلية لجميع صور الذاكرة) هما مشروعان أحمقان، لكنهما يكشفان عن عظمة متلعثمة. فهما يسمحان لنا بأن نلمح، أو نستنتج، العالم المدوِّخ الذي عاش فيه فونس. ويجب ألا ننسى أن فونس لم يكن يتقبل تقريباً المثل الأفلاطونية العامة. ولم يكن يعسر عليه فقط أن يفهم أن المصطلح الدال على النوع (كلب) يشمل جميع الأفراد المتباينة من جميع الأشكال والحجوم، بل كان يضايقه أن كلباً في الساعة الثالثة وأربعة عشر دقيقة (منظوراً إليه جانبياً) ينبغي أن يحمل

Twitter: @ketab_n

اسم «الكلب» نفسه في الثالثة وخمسة عشر دقيقة (منظوراً إليه من الأمام). كان يذهله رؤية وجهه في المرآة، ورؤية يديه، كلما رآهما. كتب سويفت أن إمبراطور ليليبوت كان يميز حركة عقرب الساعة الدقيقة، أما فونس فكان يدرك تقدم الفساد البطيء، وتلوث الأسنان، والإرهاق. كان يلاحظ زحف خطى الموت والرطوبة. كان الرقيب المعتزل والمتبصر لعالم متعدد الأشكال وخاطف ودقيق إلى درجة لا تطاق. بهرت بابل، ولندن، ونيويورك خيال البشر ببهائهن الشرس، لكن أحداً في أبراج تلك المدن العامرة أو شوارعها الموّارة لم يستشعر الحرارة والضغط في واقع لا يُستنفد كالواقع الذي كلكل على إرينيو، نهاراً وليلاً، في كوخه الأمريكي الجنوبي المتواضع. كان من العسير عليه جداً أن ينام. فالنوم يعني التجرد والانفصال عن العالم، وكان فونس، وهو يتمدد في كوخه، في عتمة غرفته، يتخيل كل شق في الجدار، كل قالب في البيوت الدقيقة التي تحيط به. (وأعيد القول إن أتفه ذكرياته كانت أكثر تفصيلاً وأكثر عنفواناً من إدراكنا للمتع المادية أو العذاب المادي). على جهة الشرق، في منطقة لم تكن قد قُسّمت بعد إلى قواطع، كانت هناك بعض البيوت الجديدة، لم يعرفها إرينيو. كان فونس يتخيلها سوداء، متراصة، يشكلها غموض واحد؛ كان يدير وجهه في ذلك الاتجاه لكي ينام. ويتخيل نفسه أيضاً في قرار النهر، وقد حجَّره التيار ومحقه.

من دون عناء، تعلم الإنجليزية، والفرنسية، والبرتغالية، واللاتينية. لكني أشكُّ، مع ذلك، بأنه حظي بقدرة جيدة على التفكير. فالفكر

Twitter: @ketab_n

يعني إغفال الفروق (أو تناسيها)، يعني التعميم، والتجريد. وفي عالم إرينيو المتراكم، لا توجد سوى التفاصيل والجزئيات، وهي في الأغلب تفاصيل متجاورة، وجزئيات مباشرة.

دخل نور الفجر إلى فناء الأرض المرصوفة.

حينئذٍ رأيت وجه الصوت الذي كان يتحدث طوال الليل. كان إرينيو فتى في التاسعة عشرة من العمر؛ فقد ولد في عام 1868؛ وقد بدا لي بفخامة البرونز – أقدم من مصر، وأسبق من النبوءات والأهرامات. وخطر لي أن كل كلمة من كلماتي (وكل إيماءة من إيماءاتي) ستظل في ذاكرته الجارفة؛ فشلَّني رعبٌ عن إصدار الإيماءات العقيم.

مات إرينيو فونس عام 1889، بالاحتقان الرئوي.

1942

Twitter: @ketab_n

وسم السيف

كانت تخترق وجهه ندبة انتقام، على شكل قوس معقوف يكاد يكون تاماً، وتقطع صدغه من جانب رأسه إلى الخد على الجانب الآخر. ولا يهم اسمه الحقيقي، فقد كان الجميع في «تاكوارمبو» يسمونه «الإنجليزي في لا كولورادا». لم يرد صاحب الأرض، كاردوسو، أن يبيعه إياها، وقد سمعت أن الإنجليزي لجأ إلى وسيلة لم يتوقعها أحد، فروى له التاريخ السري للندبة. فقد جاء الإنجليزي من الحدود، من منطقة «ريو غراندي ديل سور»، وكان هناك من يشيعون عنه أنه كان مهرباً في البرازيل. تسلقت الأعشاب التحتية على حقوله، وزادت مرارة آبار المياه؛ ولمعالجة هذه الآفات، كدح يداً بيد مع عماله. ويقول الناس عنه إنه كان صارماً إلى حد القسوة، لكنه كان عادلاً إلى حد التحرج. يقولون أيضاً إنه كان إنساناً شرِّيراً، يغلق الباب على نفسه مرة أو مرتين كل عام في غرفة في العلية، ويخرج منها بعد يومين أو ثلاثة أيام وكأنه خارجٌ من معركة أو نوبة جنون، شاحباً، مهزوزاً، مرتبكاً، لكنه يظل متسلطاً كالسابق. أتذكر عينيه الفاترتين، ونحافته المفعمة بالنشاط، وشاربه الأشيب. كان ضعيف الصلة بالآخرين، والحق أن لغته الإسبانية

Twitter: @ketab_n

بدائية، مشوبة باللهجة البرازيلية. وبمعزل عن رسائل العمل وعروضه، لم يكن يتلقى أي بريد.

في آخر مرة قمتُ فيها برحلة إلى المقاطعات الشمالية، اضطرني ارتفاع مياه الفيضان في منطقة «كاراغواتا» إلى قضاء ليلة في «لا كولورادا». ولم يستغرق الأمر بضع دقائق لأعرف أن حضوري لم يكن مرغوباً على ذلك النحو. حاولت أن أحظى برضا الإنجليزي، ولجأت إلى أقل العواطف حدة، ألا وهي العاطفة الوطنية. قلتُ إن بلداً تسري فيه روح إنكلترا لا يُهزم. فهز محدثي رأسه موافقاً، لكنه أضاف بابتسامة أنه ليس بإنجليزي. بل كان إيرلندياً من دونغارفان. وبعد قول هذا، توقف وكأنه أفشى سراً خطيراً.

بعد العشاء خرجنا لنلقي نظرة على السماء. انقشعت الغيوم، لكن سماء الجنوب بعيداً وراء القمم الحادة، كانت ترعد وتزبد بالبروق، مهددةً بعاصفة أخرى. وحين عدنا إلى غرفة الطعام المهجورة، جلب النادل الذي قدم لنا العشاء زجاجة رام. فبقينا نشرب صامتين مدة طويلة.

لست أدري في أية ساعة من الليل أدركت أنني كنت مخموراً، ولست أدري أي إيحاء أو جذل أو ملل جعلني أذكر الندبة على وجه مضيفي. تغير لون وجه الإنجليزي، ولعدة ثوانٍ تصورت أنه سيطلب مني مغادرة البيت. وأخيراً قال لي بصوت اعتيادي تماماً:

«سأروي لك قصة ندبتي بشرط أن لا تهون من عارها، ولا تقلل من شنارها».

Twitter: @ketab_n

وافقت. وها هي القصة التي رواها بمزيج من الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية:

* * *

عام 1922، في إحدى مدن «كوناوت»، كنت واحداً من رجال كثيرين يتآمرون لاستقلال إيرلندا. وما زال قسم من رفاقي هناك أحياءً يعملون من أجل السلام، وقسم، ويا للمفارقة، ما زالوا يقاتلون تحت ألوان العلم الإنجليزي، في البحر أو في الصحراء، وقد أُطلقت النار على أفضلنا جميعاً ذات فجر في فناء أحد السجون، ليعدمه أناس ما زالت الأحلام تخالط عيونهم، ولقي آخرون (ليسوا أقل شقاءً) مصيرهم في معارك مغفلة تكاد تكون سرية في الحرب الأهلية. كنا جمهوريين وكاثوليكيين، وأتصور أننا كنا رومانسيين. لم تكن إيرلندا عندنا مجرد المستقبل اليوتوبي والحاضر الذي لا يطاق، بل كانت أسطورة مريرة عذبة، كانت الأبراج الدائرية والمستنقعات الحمراء، كانت التنصل من بارنل والملاحم الكبرى التي تتغنى بسرقة ثيران كانوا في تجسدات سابقة أبطالاً وفي غيرها أسماكاً وجبالاً.... وذات مساء لن أنساه، انضم إلينا أحد الرفاق من مونستر، اسمه «جون فنسنت مون».

لم يكن يتجاوز العشرين من العمر. كان نحيفاً وناعماً في الوقت نفسه. كان يعطي انطباعاً غير مريح بكونه ضعيفاً. درس بمزيج من الحماس والغرور كل صفحة من صفحات كراس شيوعي أو آخر، وأسعفته المادية الجدلية كوسيلة لإنهاء جميع المناقشات. هناك أسباب

Twitter: @ketab_n

لا نهاية لها تجعل الإنسان يكره إنساناً آخر أو يحبه، أما مون فيختصر تاريخ العالم كله بالصراع الاقتصادي الخسيس. كان يصر على أن الثورة محكومة بالنصر. وكنت أقول له إن الأسباب المفقودة وحدها يمكن أن تشغل بال السيد النبيل... كلكل حينئذ الليل. فاستأنفنا اختلافاتنا على امتداد الممر، وأسفل السلم، وصولاً إلى الشوارع المعتمة. لم تذهلني الأحكام التي أطلقها مون بقدر ما أذهلني الإحساس بالحقيقة الجازمة والمطلقة التي كان يصدرها بها. لم يكن الرفيق يتحاور ولا يتناقش، بل كان يصدر أحكاماً، باحتقار واضح وشيء من الغضب.

حين وصلنا إلى آخر البيوت، جفلنا لدى سماعنا تبادل إطلاق نار مفاجئ. (قبل ذلك أو بعده، تحاشينا جداراً أصم لمصنع أو ثكنة). ولجأنا إلى شارع قذر؛ فاندفع جندي، بدا عملاقاً في الوهج، خارجاً من كوخ محترق. وهتف بنا آمراً أن نقف. فأسرعت الخطى، لكن رفيقي لم يتبعني. استدرت إلى الخلف، ووجدت جون فنسنت مون متجمداً بلا حراك، وقد سمّره الرعب في مكانه. هرعتُ إليه، وطرحت الجندي أرضاً بضربة واحدة، وهززت جون فنسنت مون، ونهرته، وأمرته بأن يتبعني. اضطررت إلى انتزاعه من ذراعه، لأن الخوف كان قد شلّه. حينئذ ركضنا تحت سماء صارت تتخللها الحرائق فجأة. انهمر علينا وابل من نيران البنادق؛ وأصابت رصاصة كتف مون اليمنى، وحين كنا نركض بين أشجار الصنوبر، انفجر بنشيج واهن.

خلال ذلك الخريف من عام 1922، كنت قد لجأتُ إلى بيت ريفي

Twitter: @ketab_n

يعود للجنرال بيركلي. وكان هذا الضابط (الذي لم أره أبداً) يقوم ببعض المهام الإدارية في البنغال. وكان بيته، الذي لا يزيد عمره عن مائة سنة، بيتاً مظلماً كئيباً تخربه وتفسده كثرة الممرات المحيرة وحجرات الانتظار العبثية. تحتل خزانة تحف ومكتبة ضخمة كامل الطابق الأرضي: وهي تضم كتباً خلافية تشكل، على نحو ما، تاريخ القرن التاسع عشر، وسيوفاً معقوفة من نيسابور ما زالت تحمل أهلّتُها وأقواسها الدائرية رياح الحروب وعنفها. وقد دخلنا البيت (على ما أتذكر) من الخلف. تمتم مون مرتعشاً، متيبس الشفتين، بأن أحداث الليلة كانت مثيرة. ضمدت جرحه بلفافة، وجلبت له قدحاً من الشاي. وكان جرحه سطحياً. فجأة تلعثم حائراً:

«لقد جازفتَ مجازفة كبيرة، حين عدتَ لإنقاذي على هذا النحو».

أخبرته أن ذلك لا يعني شيئاً. (فقد أكرهتني عادات الحرب الأهلية على أن أتصرف كما تصرفتُ، زد على ذلك أن سَجْنَ واحدٍ منا يمكن أن يهدد قضيتنا بأسرها).

في اليوم التالي استرد مون عافيته. قبل مني سيجارةً، واستجوبني بإلحاح حول «المصادر الاقتصادية لحزبنا الثوري». وكانت أسئلته في غاية الصفاء. أخبرته (بإخلاص) أن الوضع خطير. قطعت صليات رصاص البنادق هدوء الجنوب. أخبرت مون أن رفاقنا ينتظروننا. كان معطفي المطري ومسدسي في غرفتي في الأعلى، وحين عدتُ، وجدت

Twitter: @ketab_n

مون ممدداً على الأريكة، وعيناه مغمضتان. تصوَّر أنه أُصيب بالحمى، وتكلم عن تشنج مؤلم في كتفه. حينئذ أدركتُ أن جبنه ميؤوس منه. وعلى مضض، أوصيته أن يهتم بنفسه وغادرت. أحرجني هذا الرجل وخوفه، وأشعرني بالخجل، كأنما أنا الجبان، وليس فنسنت مون. فما يفعله إنسان واحد يبدو كأنما يفعله الناس جميعاً. ولهذا فمن العدل أن جحود إنسان في حديقة من شأنه أن يلحق العار بالبشرية كلها؛ ولهذا فمن العدل أن صلب يهودي واحد يكفي لإنقاذها. ولعل شوبنهاور كان على صواب حين ارتأى: أنا الآخرون جميعاً، وكل إنسانٍ هو الناس كلهم، وشكسبير على نحو ما هو المعذب جون فنسنت مون.

قضينا تسعة أيام في بيت الجنرال الكبير. ولن أقول شيئاً عن عذاب المعركة المظلمة ورونقها البهي؛ لأن قصدي ينحصر في رواية قصة هذه الندبة التي تتصدر وجهي. في ذاكرتي، أن تلك الأيام التسعة تشكل يوماً واحداً – باستثناء ما بعد آخر يوم منها، حين اقتحم رجالنا ثكنة عسكرية، وتمكنوا من الانتقام، رجلاً لرجل، لرفاقنا الستة عشر الذين أسقطتهم البنادق الآلية في «ألفن». كنت أخطط للانسلال من البيت قبل انبلاج الفجر، تحت جنح ظلام الشفق. عدت عند حلول المساء. وكان رفيقي ينتظرني على السلم؛ إذ لم يسمح له جرحه بالنزول. وحين تطلعت إليه، رأيت في يده كتاباً عن إستراتيجية الحروب من تأليف ف. ن. مود أو كلاوزوفيتش. وقد اعترف لي ذات ليلة: «إن أفضل الأسلحة لديَّ هي المدفعية». كان يستفسر دائماً عن خططنا، ويجد

Twitter: @ketab_n

متعة في نقدها أو إعادة النظر فيها. وتعود أيضاً أن يستنكر «قاعدتنا المالية البائسة». وعن عقيدة أو حصافة، كان يتنبأ بنهاية فاجعة. كان يتمتم: (Cest une affaire flambée). ولكي يظهر أن جبنه المادي لم يكن يشكل فرقاً لديه، كان يوغل في غطرسته الفكرية. هكذا انقضت تسعة أيام، بخيرها وشرها.

في اليوم العاشر، سقطت المدينة دفعة واحدة وإلى الأبد في أيدي السود والتانيين. تجول في الشوارع فرسان صامتون طوال القامة. وكانت الريح مفعمة بالرماد والدخان. وعند زاوية الطريق في منتصف إحدى الساحات، رأيت جثة رجل، لكن تلك الجثة كانت أقل حيوية في ذاكرتي من مشهد الجنود الذين كانوا يمارسون براعتهم في الرماية في منتصف ساحة المدينة... خرجت والشمس معلقة في السماء. وعدت قبل منتصف النهار. في المكتبة، كان مون يتحدث مع أحدهم، بنبرة صوت أدركتُ منها أنه يستعمل الهاتف. ثم سمعت اسمي؛ ثم إنني سأعود عند الساعة السابعة؛ ثم اقتراحاً بأن يُلقى عليَّ القبض وأنا أعبر الحديقة. كان صديقي العقلاني يبيعني بعقلانية. وقد سمعته يطلب بعض الضمانات على سلامته الشخصية.

عند هذه النقطة تشتبك قصتي، ويضيع الخيط فيها. أعرف أنني طاردت الواشيَ عبر ممرات كابوس مظلمة وسلالم دوار عميقة. كان مون يعرف حنايا البيت أفضل مما أعرفها. وقد ضيعته مرة أو مرتين. لكنني قررت أن أنزوي به قبل أن يقبض الجنود عليَّ. ومن بين قطع

Twitter: @ketab_n

سلاح الجنرال الكثيرة، انتزعت حربة معقوفة، وبذلك الهلال الفولاذي طبعت على وجهه إلى الأبد وسم هلال من دم. ولك أنت وحدك، يا بورخيس، أيها الغريب، أُدلي بهذا الاعتراف. ولعل احتقارك لن يؤلمني كثيراً.

* * *

هنا توقف الراوي عن قصته. وقد لاحظت أن يديه ترتجفان.

سألته: «ومون، ماذا حصل له؟»

«أُعطي قطع فضة يهوذا، ثم هرب إلى البرازيل. وذلك المساء في ساحة المدينة، راقب بعض السكارى يطلقون النار».

عبثاً انتظرت منه أن يستمر في رواية القصة. فطلبت منه المضي فيها.

هزت آهةٌ جسده بأسره. وحينئذ أشار إلى ندبته البيضاء المقوسة، وهو يمسها مساً رقيقاً.

ثم: «ألا تصدقني؟ ألستَ ترى علامة العار مطبوعة على وجهي؟ لقد رويتُ لك القصة على هذا النحو لكي تسمعها حتى النهاية. أنا من وشيتُ بالإنسان الذي أنقذني، وقدم لي المأوى– أنا فنسنت مون. والآن، احتقرني، ما طاب لك الاحتقار».

1942

Twitter: @ketab_n

موضوعة الخائن والبطل

هكذا تطلق السنة الأفلاطونية
الخطأ الجديد والصواب الجديد
وتنداح بدله في القديم؛
فكل البشر راقصون، يرجع إيقاع خطاهم
إلى قرقعة همجية لقرص ما.

و. ب. ييتس: «البرج»

تحت التأثير المفضوح لتشسترتن (مبتكر الأسرار الجميلة ومزخرفها) وتأثير مستشار البلاط لايبنتز (الذي ابتكر الانسجام المسبَّق)، في مساءات فراغي، تخيّلتُ حبكة هذه القصة – التي سأمليها بالتأكيد، ولكنها تبرر وجودي على نحو ما. وهي ما زالت تفتقر إلى التفاصيل والمراجعات وإعادة النظر، إذ هناك مقاطع في القصة لم تتبين لي بعد. واليوم، الثالث من كانون الثاني 1944، أراها على النحو الآتي:

تجري أحداثها في بلد مقموع ولكنه عنيد، مثل بولندا أو إيرلندا، أو جمهورية فينيسيا، أو دولة أمريكية جنوبية، أو في البلقان... أو لعل

Twitter: @ketab_n

الأولى أن نقول إنها جرت في الماضي، إذ، وإن كان الراوي معاصراً، فإن القصة التي يرويها حصلت في منتصف القرن التاسع عشر أو بواكيره – أو لنقل عام 1824، ومراعاةً للسرد، فلنقل في إيرلندا أيضاً. والراوي رجل اسمه ريان، وهو نجل حفيد الشاب، البطولي، الجميل، القتيل، فيرغس كِلكباترك، الذي انتُهك قبره على نحو غامض، وظل اسمه يتألق في أشعار براوننغ وهوغو، وينتصب تمثاله فوق ربوة رمادية بين المستنقعات الحمر.

كان كلكباترك متآمراً وزعيماً سرياً ومجيداً للمتآمرين. ومثل النبي موسى، الذي لَمَح أرض مؤاب وإن لم يبلغ الأرض الموعودة، فقد لقي كلكباترك مصرعه في مساء ثورة مظفرة كان قد خطط لها وحلم بها. اقترب موعد المئوية الأولى لوفاته؛ وظروف الجريمة ما زالت ملغزة؛ فيكتشف ريان، الذي يكتب سيرة حياة البطل، أن اللغز أعمق من مجرد بحث بوليسي. فقد اغتيل كلكباترك في مسرح، ولم تعثر الشرطة الإنجليزية على أثر للقاتل أبداً. ويزعم المؤرخون أن هذا الفشل لا ينتقص من السمعة الجيدة للشرطة، ما دامت الشرطة نفسها كانت تريد اغتيال كلكباترك. وأربكت جوانب أخرى من اللغز بال ريان: ذلك أن بعض الأشياء تكاد تبدو دورية، فتبدو أو تجمع وقائع من أماكن متباعدة، وعصور متباعدة. على سبيل المثال، يعرف الجميع أن المحققين الذين تفحصوا جثة البطل وجدوا رسالة مختومة تحذر كلكباترك من الذهاب إلى المسرح تلك الليلة؛ وقد تلقى يوليوس قيصر أيضاً، وهو يتمشى نحو

Twitter: @ketab_n

الموضع الذي كانت تنتظره فيه خناجر أصدقائه، قصاصة لم يقرأها أبداً، قصاصة تخبره بالخيانة وتكشف له عن أسماء الخونة. ورأت زوجة قيصر، كالبورنيا، في أحلامها برجاً، أهداه الشيوخ إلى زوجها، يسقط على الأرض، وراجت شائعات زائفة ومغفلة في طول البلاد وعرضها، عشية موت كلكباترك، عن اشتعال برج دائري في كلغارفان – وهو حدث اعتبر نذراً مشؤوماً، ما دام كلكباترك قد ولد في كلغارفان. وهذه التوازيات (وغيرها) بين قصة يوليوس قيصر وقصة متآمر إيرلندي دفعت ريان إلى تخيل شكل سري للزمن، هو رسم خطوط تتكرر. عادت به أفكاره إلى التاريخ العشري الذي تصوره كوندرسيه، والصروح التي اقترحها هيغل، وإشبنغلر، وفيكو، والشخصيات الإنسانية، عند هسيود، وهي تتدهور من الذهب إلى الحديد. صار يتأمل في تناسخ الأرواح، ذلك المذهب الذي يرعب الأدباء السلتيين، والذي نسبه قيصر نفسه للدرودين في بريطانيا؛ صار يعتقد أن البطل قبل أن يكون فيرغس كلكباترك، كان فيرغس كلكباترك نفسه يوليوس قيصر. وقد أنقذه من هذه المتاهات الدائرية اكتشاف غريب، اكتشاف سيلقي به في أعماق متاهات أخرى، أكثر تشابكاً وتبايناً، فبعض الكلمات التي أطلقها شحاذ تحدث مع فيرغس كلكباترك يوم موته كان قد صاغها شكسبير في مسرحيته «ماكبث». وإنه لمن العجيب أن يقلد التاريخُ التاريخَ، أما أن يقلد التاريخُ الأدبَ فأمر غير قابل للتصور...

يمضي ريان في حفره، فيجد أن جيمز ألكسندر نولان، أكبر رفاق

Twitter: @ketab_n

البطل سناً، كان قد ترجم أهم مسرحيات شكسبير عام 1814 إلى اللغة الغايلية، ومن بينها «يوليوس قيصر». كما يجد في الأرشيف مقالة مخطوطة كتبها نولان عن «ألعاب الأعياد» (Festspiele) السويسرية – وهي تمثيليات مسرحية مشائية تتطلب مشاركة آلاف الممثلين وتروي الأحداث التاريخية في المدن نفسها والجبال نفسها التي حصلت فيها. وتكشف لريان وثيقة أخرى غير مطبوعة أن كلكباترك، قبل النهاية بأيام قليلة، وهو يترأس آخر اجتماع له، كان قد وقّع بحكم الموت على أحد الخونة، الذي تمت الخربشة على اسمه. وهذا الحكم لا يتوافق مع الرأفة المعتادة لدى كلكباترك. يتوغل ريان عميقاً في القصة (ويشكل تحقيقه فجوة من الفجوات في سرد الكتاب) ويقرر الكشف عن هذا اللغز.

فقد اغتيل كلكباترك في مسرح، لكن المدينة بكاملها قامت بدور المسرح، أيضاً، وكان الممثلون جمعاً غفيراً، وقد حصلت التمثيلية التي توجت بموت كلكباترك على امتداد عدة أيام وعدة ليال. وفيما يأتي ما حصل:

اجتمع المتآمرون في الثاني من آب عام 1824. كان البلد مهيأً للثورة، لكن جميع المحاولات أخفقت على نحو ما – مما يجب أن يعني وجود خائن في الحلقة الداخلية الضيقة. أمر فيرغس كلكباترك جيمز نولان بالكشف عن هوية الخائن، وقد قام نولان بالمهمة المسندة إليه. وأعلن أمام الرفاق المجتمعين أن الخائن هو كلكباترك نفسه. وقد برهن على حقيقة اتهامه بما لا يقبل ظلاً من شك، فحكم الحاضرون في الاجتماع

Twitter: @ketab_n

بالموت على زعيمهم. ووقّع الزعيم على قرار موته، لكنه طلب ألا يُسمح لعقوبته بأن تضر بسلامة القضية.

وهكذا وضع نولان خطة عجيبة. كان كلكباترك معبود إيرلندا؛ ومن شأن أدنى تشكيك بحقارته أن يعرض الثورة للخطر، اقترح نولان طريقة لتحويل إعدام الخائن إلى وسيلة لتحرير البلاد. اقترح أن يموت المدان على يد قاتل مجهول في ظروف درامية معدة بعناية، بحيث تظل هذه الظروف منقوشة في خيال الشعب وتسرِّع من حركة الثورة. وأقسم كلكباترك على التعاون في هذه الخطة التي توفر له الفرصة للتكفير عن ذنبه، وتبلغ أوجها في موته.

لم يكن أمام نولان متسع من الوقت لابتكار الظروف المعقدة المناسبة للإعدام، ولذلك انتحلها من كاتب مسرحي آخر، هو العدو الإنجليزي وليم شكسبير، مكرراً مشاهد من «ماكبث» و«يوليوس قيصر». وقد استغرقت التمثيلية المعلنة والتمثيلية السرية عدة أيام. دخل المدان دبلن، وتناقش، وعمل، وصلى، وشجب، ونطق بكلمات ظهر (فيما بعد) أنها شجية – وكل فعل من هذه الأفعال، مما ينبغي أن يكون مجيداً في النهاية، كان قد أعده نولان. تعاون مئات من الممثلين مع البطل؛ كان دور بعضهم معقداً، ودور غيرهم عابراً. فما قالوه وما فعلوه يظل في كتب التاريخ وفي ذاكرة إيرلندا المتقدة. كانت نشوة هذا القدر المحبوك قد استولت على قلب كلكباترك، حيث خلصه وأدانه معاً، فأثرى نص قاضيه نولان بكلمات وأفعال ارتجلها. هكذا توالت مشاهد هذه الدراما

Twitter: @ketab_n

في الزمن، حتى كان اليوم السادس من آب عام 1824، على خشبة مسرح ترفرف فوقها ستائر جنائزية تنذر بستائر إبراهام لنكولن، فاخترقت رصاصة متوقعة صدر الخائن – البطل، الذي لم يستطع أن ينطق، بين فيضين من الدماء العنيفة، سوى ببعض الكلمات المعدة سلفاً.

في عمل نولان، تمتاز الفقرات التي تحاكي شكسبير بأنها أقل درامية، ويشك ريان بأن المؤلف قد دسَّها متعمداً، لكي يدرك حقيقتها شخص ما في المستقبل. وهو يفهم أيضاً، أنه هو نفسه يشكل جزءاً من خطة نولان... وبعد تردد طويل وعنيد، قرر كتمان اكتشافه، ونشر كتاباً أهداه إلى ذكرى البطل المجيد، وربما كان هذا نفسه استباقاً لفعل ما أيضاً.

Twitter: @ketab_n

الموت والبوصلة

إلى ماندي مولينا فيديا

من بين المشكلات الكثيرة التي واجهت الفطانة المتهورة لدى لونروت، لم يكن هناك أغرب، وربما جاز القول أغرب بفظاظة، من سلسلة الأفعال الدورية الدموية التي بلغت أوجها في فيلا «تريستي لي روي»، بين نفحات أشجار اليوكالبتوس الدائمة. صحيح أن إريك لونروت لم يفلح في منع الجريمة الأخيرة، ولكن لا خلاف في أنه تنبأ بها. كما أنه لم يحدس بالطبع هوية قاتل يارمولنسكي المنحوس، لكنه تنبأ بالشكل السري للسلسلة الشريرة والدور الذي أداه فيها شارلش الأحمر، الشهير باسم شارلش الغندور. وقد أقسم هذا المجرم (مثل كثيرين غيره) بشرفه على قتل لونروت، لكن لونروت لم يجبن ولم يرتعب. كان يرى نفسه مجرد باحث، على طريقة أوغست دوبان، لكن شيئاً من المغامرة، بل حتى من المقامرة، كان يعتمل في داخله.

حدثت الجريمة الأولى في «أوتيل دو نورد»، ذلك الموشور العالي الذي يطل على مصب النهر الذي تتدفق مياهه بألوان الصحراء. فإلى

Twitter: @ketab_n

هذا البرج (الذي يجمع بوضوح بين بياض المصحات الكريه، والتقسيم المرقم للسجون، والمظهر العام للمواخير) جاء الوفد من بودولسك إلى المؤتمر التلمودي الثالث، في اليوم الثاني من كانون الأول، وفيه الدكتور مارسيل يارمولنسكي، وهو رجل ذو لحية رمادية وعينين رماديتين. لن نعرف أبداً هل وجد أوتيل دو نورد مريحاً أم لا، لكنه قبل به بالرضا القديم الذي أتاح له احتمال ثلاث سنوات من الحرب في كارباثيانز وثلاثة آلاف سنة من الاضطهاد والذبح. أُعطي غرفة نوم في أحد الطوابق، في جناح تقابله محلات رباعية غاليلي بما لا يخلو من بهاء. تعشى يارمولنسكي، وأجَّل حتى اليوم التالي بحثه في المدينة التي يجهلها، ورتب في أحد الدواليب كتبه الكثيرة وممتلكاته القليلة، وقبل منتصف الليل أطفأ النور. (هكذا أعلن سائق محلات الرباعية، الذي كان نائماً في الغرفة المجاورة). وفي اليوم الرابع، في الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق، اتصل محرر في مجلة «يديش زايتنغ» تلفونياً بالدكتور يارمولنسكي، لكنه لم يردَّ. عُثر عليه في غرفته، وقد اكتسى وجهه بالسواد قليلاً، في حالة شبه عري، تحت إزار قديم واسع. كان ممدداً غير بعيد عن الباب الذي يفضي إلى الممر؛ وقد شقت طعنة سكين عميقة صدره. وبعد ساعات قليلة، في الغرفة نفسها، بين الصحفيين والمصورين والشرطة، وقف المفوض تريفرانوس ولونرت يتناقشان حول مشكلته باتزان.

قال تريفرانوس وهو يلوح بسيجاره الفاخر: «لا داعي للبحث عن

Twitter: @ketab_n

تنين أو قطة بثلاث سيقان. نحن جميعاً نعرف أن محلات رباعية غاليلي تمتلك أفضل اليواقيت في العالم. دخل أحدهم هنا عن طريق الخطأ بهدف سرقتها. فاستيقظ يارمولنسكي، فكان يجب أن يقتله اللص. ماذا تعتقد؟»

ردَّ لونروت قائلاً: «ممكن، لكنه غير مثير. سوف تقول إن الواقع غير ملزم ولو قليلاً بأن يكون مثيراً، وسوف أقول إن الواقع قد يتحاشى هذا اللزوم، لكن الافتراضات ليست كذلك. في الافتراض الذي طرحته الآن، تتدخل المصادفة تدخلاً كبيراً. ما لدينا هنا هو جثة حبر رباني، وأفضّل أن يكون لدينا تفسير رباني، وليس حماقة متخيلة عن سارق خيالي».

تكثفت فكاهة تريفرانوس:

«لست معنياً بالتفسيرات الربانية، كما تسميها؛ أنا معني بالقبض على هذا الوغد الذي ذبح هذا الشخص المجهول».

تساءل لونروت: «مجهول؟ ها هي أعماله الكاملة». وأشار إلى المكتب حيث يوجد صف المجلدات الكبيرة: **إثبات القبالة، دراسة فلسفة روبرت فلود، سيرة البعل شام، تاريخ فرقة الهسيديين**، مقال في الألمانية عن كتابة الكلمة الرباعية (Tetragrammaton)، آخر عن الأسماء الإلهية في الأسفار الخمسة. حدق فيها المفوض بريبة، تقارب الاشمئزاز. ثم ضحك.

Twitter: @ketab_n

رد قائلاً: «لست سوى مسيحي بسيط. تستطيع أخذ هذه الأشياء معك إلى البيت، إذا شئت، لن أضيع وقتي في الخرافات اليهودية».

تمتم لونروت: «لعل هذه الجريمة تنتمي إلى تاريخ الخرافات اليهودية».

أضاف المحرر في يديش زايتنغ بجرأة: «كما تنتمي المسيحية». كان ضعيف البصر، وخجولاً تماماً، وملحداً.

لم يرد عليه أحد. في الطابعة الصغيرة، وجد أحد الوكلاء قصاصة ورق كان مكتوباً عليها الجملة الناقصة التالية:

لقد كُتب الحرف الأول من الاسم.

قاوم لونروت ابتسامة. وفجأة تحول إلى محب للكتب المقدسة، أو عالم عبرانيات، فأمر أحد الضباط بجمع كتب القتيل، وحملها إلى شقته. حينئذ انصرف إلى دراستها غير عابئ بالبحث البوليسي. كشف له أحد الكتب، بقطع الثمن، أفكار إسرائيل بعل شام توف، مؤسس فرقة «الأتقياء»؛ وكشف له آخر فضائل كتابة الكلمة الرباعية ومخاوفها مما يحيط باسم الله الأعظم، وآخر أن فكرة أن لله اسماً سرياً (بما يشبه كثيراً الكرة البلورية التي نسبها الفرس للإسكندر المقدوني) ينطوي على صفته التاسعة، الأبدية – أي المعرفة المباشرة بكل ما يوجد، هي فكرة موجودة، وقد وجدت من قبل في الكون. يعدد التقليد تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله. ويعزو العبرانيون هذا العدد الناقص إلى الخوف السحري حتى من الأعداد، ويزعم الهسيديون أن الفراغ يشير إلى الاسم المائة – الاسم المطلق.

Twitter: @ketab_n

صرفه عن هذا الاطلاع، بعد أيام قليلة، ظهور محرر اليديش زايتنغ. أراد هذا الشاب أن يتحدث عن الجريمة؛ وفضّل لونروت أن يتكلم عن أسماء الله الكثيرة. ملأ الصحفي ثلاثة أعمدة بقصة تقول إن المحقق إريك لونروت كرّس نفسه لدراسة أسماء الله لكي يتوصل إلى اسم القاتل. لم يشعر لونروت، المتعود على تبسيطات الصحفيين، بالسخط. وجاءه أحد أصحاب المكتبات ممن يعتقدون أن هناك من يشتري أي كتاب ينشر بطبعة شعبية من «تاريخ فرقة الهسيديين».

حصلت الجريمة الثانية ليلة الثالث من كانون الثاني، في أكثر الزوايا ضياعاً وفراغاً من الضواحي الغربية للعاصمة. قرابة الفجر، رأى أحد رجال الجندرمة الذين يراقبون عزلة هذه الأماكن الموحشة على ظهور جيادهم رجلاً ملفوفاً بإزار، ممدداً في ظل محل أصباغ قديم. بدا الوجه المتيبس مصبوغاً بقناع من دم، وقد شق صدره جرح طعنة عميقة. على الجدار، فوق المعينات الصفراء والحمراء، كُتبت بعض الكلمات بالطباشير. تهجاها رجل الجندرمة... في تلك الظهيرة توجه تريفرانوس ولونروت إلى مشهد الجريمة البعيد. على يمين المركبة ويسارها تتفتت المدينة؛ تتسع قبة السماء، وتتضاءل البيوت، ويلوح تنور حجري أو تزداد أشجار الحور شيئاً فشيئاً. وصلوا إلى نهاية طريقهم البائسة. زقاق أخير من جدران القرميد الوردية بدا أنها تعكس بطريقة ما اضطراب غروب الشمس. تم التعرف على هوية القتيل. كان اسمه دانيال سيمون أزيفيدو، وهو رجل حظي ببعض الشهرة في الضواحي الشمالية القديمة،

Twitter: @ketab_n

حيث ارتفع من سائق مركبة وضيع إلى سفاح سياسي، لينحط فيما بعد إلى مجرد لص، وحتى مخبر. (بدت لهم طريقة موته الفريدة مناسبة له تماماً: إذ كان أزيفيدو آخر ممثل لجيل من قطاع الطرق الذين يعرفون كيف يتفننون في استعمال الخناجر، لا المسدسات). وتقول الكلمات المكتوبة بالطباشير ما يلي:

لقد كُتب الحرف الثاني من الاسم.

حصلت الجريمة الثالثة ليلة الثالث من شباط. قبل الساعة الواحدة بقليل، رنَّ الهاتف في مكتب المفوض تريفرانوس. بسرية بالغة، تكلم رجل ذو صوت أجش: أخبر المفوض أن اسمه غينزبرغ (أو غونزبرغ)، وأنه يود الإفصاح له، مقابل أجر معقول، عن تفسير للضحيتين أزيفيدو ويارمولنسكي. فجأة، حجَبَ ضجيج صفير وأبواق صوت المخبر. وانقطع الاتصال. دون أن يهمل تريفرانوس احتمال الخدعة أو المزحة (فقد كان موسم كرنفال)، بحث ووجد أن المكالمة جاءت من بيت ليفربول، من نزل في ريو دو تولون – ذلك الشارع القذر الذي يلتئم فيه متحف العجائب الشعبي ودكان الحليب والمبغى وشركة بائعي الكتب المقدسة. عاود تريفرانوس الاتصال بصاحب المحل. فأخبره هذا الشخص (اسمه بلاك فينغان، وهو مجرم إيرلندي قديم، تغمره الآن النزاهة حتى تكاد تسحقه) أن آخر شخص استعمل هاتف النزل هو نزيل اسمه غريفيوس، غادر قبل قليل مع بعض أصدقائه. توجه تريفرانوس بسيارته على الفور إلى بيت ليفربول. فقال له صاحب النزل

Twitter: @ketab_n

ما يأتي: قبل ثمانية أيام، استأجر غريفيوس غرفة فوق البار. وهو رجل ذو ملامح حادة، ولحية رمادية سديمية، يرتدي بدلة سوداء رثة. وقد طلب فينغان (الذي وضع الغرفة تحت استعماله كما توقع تريفرانوس) مبلغاً كبيراً لاستئجار الغرفة؛ فسدد غريفيوس المبلغ على الفور. وتقريباً لم يخرج من غرفته أبداً؛ كان يتناول غداءه وعشاءه هناك، ولم ير أحدٌ وجهه في البار. تلك الليلة نزل إلى مكتب فينغان لإجراء مكالمة. كانت هناك مركبة مغلقة تقف أمام النزل. لم يترك السائق مقعده؛ وقد ذكر عدة زبائن أنه كان يرتدي قناع دب. نزل من السيارة شخصان بزي مهرجين؛ كانا قصيرين، وسرعان ما عرف الجميع أنهما مخموران. اندفعا إلى مكتب فينغان، وأبواق الحفل تصطفق، وعانقا غريفيوس، الذي بدا أنه عرفهما، لكنه رد عليهما ببرود. تبادلوا بضع كلمات باليديشية – غريفيوس بصوت خفيض، أجش، والمهرِّجانِ بنبرة عالية متكلفة – وحينئذ ذهب الجميع إلى غرفة غريفيوس في الطابق العلوي. بعد ربع ساعة، نزل الثلاثة مبتهجين، وكان غريفيوس يترنح، حتى بدا مخموراً كالآخرين. مشى، متوسطاً صاحبيه، فبدا طويل القامة، متمايلاً، بين المهرجين المقنعين. (تذكرت إحدى النساء في البار الأشكال المعينية الصفراء والحمراء والخضراء). تعثر مرتين، وأسنده المهرِّجانِ مرتين. صعد الرجال الثلاثة إلى المركبة واختفوا في الاتجاه الذي يفضي إلى الرصيف المحاذي بمياهه المستطيلة. ومن عتبة السيارة، خربش آخر المهرجين شكلاً بغيضاً وجملة على أحد ألواح الباب الخارجي.

Twitter: @ketab_n

حملق تريفرانوس في الجملة، وكانت متوقعة تقريباً:

لقد كُتب الحرف الأخير من الاسم.

بعد ذلك تفحص غرفة غريفيوس - غينزبرغ الصغيرة. على الأرض كانت هناك نجمة فظة مرسومة بالدم، وفي الزوايا بقايا سجائر هنغارية، وعلى منضدة الكتابة كتاب لاتيني بقلم ليوسدن (Philologus Hebraeo-Graecus) (الأديب العبراني الإغريقي) (1739)، بالإضافة إلى عدد من الملاحظات المخطوطة. تطلع تريفرانوس إلى الكتاب بازدراء وسلمه إلى لونروت. شرع الأخير، دون أن ينزع قبعته، بقراءة الكتاب، في حين تساءل المفوض عن الشهادات المتناقضة للاختطاف المحتمل. وفي الرابعة، غادرا المكان. وعند منعطف ريو دي تولون، وهم يخطون فوق تعرجات الفجر الميتة، قال تريفرانوس:

«ماذا لو كانت قصة الليلة مجرد خدعة، مجرد شبح؟»

ابتسم إريك لونروت وبصوت رزين قرأ للمفوض قطعة (كان قد رُسِمَ تحتها خطٌّ) من المبحث الثالث والثلاثين من كتاب (الأديب):

Dies Judaeorum incipit a solis occasu

Usque ad solis occasum diei sequentis.

وأضاف: «تعني هذه: أن اليوم اليهودي يبدأ مع الغروب ويبقى حتى الغروب التالي».

أبدى تريفرانوس علامة سخرية:

«هل هذا أثمن ما التقطته هذه الليلة؟»

Twitter: @ketab_n

«كلا. بل أثمن منه الكلمة التي استعملها غينزبرغ».

لم تهمل صحف المساء هذه الميتات والاختفاءات الدورية. ميزتها صحيفة (الصليب والسيف) عن الانضباط المثير للإعجاب ونظام المؤتمر الهرمسي الأخير، واستنكر أرنست بالاست، من صحيفة «الشهيد»، «التأخيرات غير المقبولة في مهمة سرية ومذبحة رخيصة، امتدت ثلاثة شهور لتصفية ثلاثة يهود». ورفضت «يديش زايتنغ» النظرية المرعبة حول وجود مؤامرة ضد النزعة السامية، «وإن كان كثير من العارفين المطلعين لا يقبلون بأي حل آخر للغز الثلاثي»، وأقسم أشهر سفاح في الجنوب، شارلش الأحمر الغندور، أن مثل هذه الجرائم لم تحدث قط في مقاطعته، واتهم مفوض الشرطة فرانز تريفرانوس بالتهاون الإجرامي.

في الأول من آذار، تلقى تريفرانوس نفسه مظروفاً مختوماً مثيراً للفضول. فتحه؛ فكان يحتوي على رسالة موقعة باسم «باروخ إسبينوزا»، وخارطة مفصلة للمدينة، من الواضح أنها انتزعت من دليل سياحي. تنبأت الرسالة أن جريمة رابعة ستحصل في اليوم الثالث من آذار، لأن محل الأصباغ في الغرب، والنزل في ريو دي تولون، وأوتيل الشمال تشكل «زوايا كاملة لمثلث صوفي متساوي الأضلاع»؛ وتم إيضاح المثلث وانتظامه بالحبر الأحمر على الخارطة. قرأ تريفرانوس هذه الحجة الهندسية باشمئزاز، ثم أرسل كلاً من الرسالة والخارطة إلى بيت لونروت، فلا خلاف في أن لونروت إنسان يستحق مثل هذا الهراء المجنون.

Twitter: @ketab_n

درس إريك لونروت الخارطة والرسالة. وكانت المواقع الثلاثة فعلاً متساوية المسافات. (تناظر في الزمان: 3 كانون الأول، 3 كانون الثاني، 3 شباط)، وتناظر في المكان أيضاً... شعر لونروت فجأةً أنه على وشك حل اللغز. وأكملت مجموعة من المناقل وبوصلة حدسه المفاجئ. ابتسم، ونطق بكلمة «الكلمة الرباعية» (Tetragrammaton) (التي ظفر بها أخيراً)، فتكلم مع المفوض على الهاتف. أخبره قائلاً:

«شكراً على المثلث متساوي الأضلاع الذي أرسلته الليلة الماضية. فقد ساعدني على حل المشكلة. غداً، الجمعة، سيكون المجرمون في السجن، نستطيع أن ننام مطمئنين».

«في هذه الحالة، لا يخططون لجريمة رابعة؟»

«بالضبط لأنهم يخططون لجريمة رابعة نستطيع أن ننام مطمئنين».

أغلق لونروت السماعة. وبعد ساعة، استقل قطار سكة الحديد الجنوبية نحو فيلا «ترستي لي روي» المهجورة. جنوب المدينة في قصتنا يجري نهر ضحضاح بمياه موحلة، وقد خالطته النفايات العائمة والقمامة الراسبة. وعلى الجانب الآخر توجد ضاحية صناعية، يزدهر فيها قطاع الطرق تحت حماية رئيس من برشلونة. ابتسم لونروت وهو يفكر أن أشهر هؤلاء المجرمين – شارلش الأحمر – كان سيدفع أي مبلغ لكي يعلم بزيارته السرية. كان أزيفيدو أحد أعضاء عصابة شارلش؛ فكّر لونروت في احتمال بعيد أن يكون شارلش نفسه هو الضحية الرابعة، لكنه استبعد هذه الفكرة... فهو في الحقيقة حلّ المشكلة، أما الظروف

Twitter: @ketab_n

الخالصة والوقائع (الأسماء، والاعتقالات، والوجوه، وسجلات السجون، والمحاكمات والعقوبات) فلم تعد تهمه كثيراً الآن. أراد أن يتمشى على قدميه، أراد أن يرتاح من شهور البحث المتواصل الثلاثة. فكر أن تفسير الجرائم يكمن في مثلث مغفل وكلمة إغريقية غبارية خاملة. بدا له اللغز الآن واضحاً وضوح البلور، فتعجب كيف قضى مائة يوم في محاولة حله.

وقف القطار على رصيف تحميل صامت. فنزل لونروت. كان أصيلاً من تلك الآصال المهجورة التي تشبه الفجر. كان الهواء على السهول الموحلة رطباً وبارداً. بدأ لونروت بالمشي في الطريق الريفي. رأى كلاباً، رأى عربة أو شاحنة على طريق مسدود، رأى الأفق، رأى حصاناً فضياً يشرب الماء من بركة نتنة. كانت الظلمة تزداد إطباقاً حين رأى مبنى رائعاً لفيلا ترستي لي روي، تنتصب بعلو أشجار اليوكالبتوس التي تحيط بها. فخطرت له فكرة أن فجراً واحداً وغروباً واحداً (التماعة قديمة في الشرق والتماعة في الغرب) كانت كل ما يفصله عن تلك الساعة التي ينشدها الباحثون عن الاسم الأعظم.

كان سياج حديد صدئ يحدد محيط الفيلا غير المنتظم. والبوابة الرئيسة مغلقة. دار لونروت دورة كاملة حولها، دون أن يتوقع كثيراً العثور على طريق. عاد إلى البوابة الحصينة، ودس يده آلياً تقريباً بين القضبان واستكشف المزلاج. أجفله صرير الحديد. وبسلبية جاهدة، انفتحت البوابة على مصراعيها.

Twitter: @ketab_n

شق لونروت طريقه قدماً بين أشجار اليوكالبتوس، وهو يخطو فوق أجيال مختلطة من الأوراق الحمراء المتيبسة. منظوراً إلى البيت عن قرب، يبدو وكأنه ينتمي إلى فيلا تريستي لي روي التي تعج بالتناظرات العقيمة والتكرار المهووس: يظهر تمثال لدايانا فاترة في إحدى الكوى الكئيبة ليكمّله تمثال آخر لدايانا في كوة أخرى؛ وتكرر شرفةٌ شرفة أخرى؛ ينفتح سلم بعتبتين على درابزين مزدوج. ويلقي وجهان لهرمس ظلاً رهيباً. تمشى لونروت حول البيت من الخارج، كأنما قام بدورة حول أرض الفيلا. تفحص كل شيء، تحت مستوى السقيفة، لاحظ وجود مصراع باب ضيق.

دفعه؛ تهبط بعض عتبات الرخام إلى قبو. توقع لونروت، وقد غمره هوس البناء بالتناظر، أن هناك مجموعة أخرى من العتبات في الجدار المقابل. وجدها، وتسلقها، ورفع يده، وفتح الباب المسحور في السقف.

قاده ضوء يلتمع نحو نافذة. فتح هذه أيضاً؛ أضاء قمرٌ أصفر مستدير نافورتين تراكمت عليهما الأوراق في الحديقة الموحشة. استكشف لونروت البيت. تفضي به غرف الانتظار والقاعات إلى فناءات متماثلة: غالباً ما تكون الفناءات نفسها. صعد سلماً يعلوه الغبار إلى غرف انتظار دائرية؛ لعله بقي بلا انتهاء يواجه جدراناً مرآوية. ساوره الخوف من نوافذ مفتوحة أو نصف مفتوحة، كشفت له عن الخارج، الحديقة المهجورة من أعالي مختلفة وزوايا مختلفة – في الداخل، يتدثر الأثاث بأغطية مصفرة، والثريات بقماش قطني. أوقفته غرفة نوم: في غرفة

Twitter: @ketab_n

النوم وردة واحدة في مزهرية خزفية صينية، تفتتت في يده براعمها لدى اللمسة الأولى. في الطابق الثاني، في السطح الأعلى، بدا له البيت يتسع ولا يتناهى. فكّر: **ليس البيت بهذه السعة. بل يبدو أوسع مما هو عليه بسبب عتمته، وتناظره، ومراياه، وعمره العتيق، وجهلي به، وهذه العزلة.**

أخذه السلم الملتوي إلى الإطلالة. أطل ضوء قمر المساء من خلال معينات النوافذ؛ كانت صفراء وحمراء وخضراء. أوقفته ذكرى مذهلة مدوخة.

فجأة اندفع شخصان شرسان وممتلئان، أحاطا به وجرداه من سلاحه، ورحّب به شخص ثالث، فارع الطول، برزانة:

«ما أكرمك! لقد وفّرتَ علينا ليلة ويوماً».

لقد كان شارلش الأحمر. قيد الرجلان يدي لونروت. وأخيراً عثر لونروت على صوته.

«شارلش– أأنت تبحث عن الاسم السري؟»

بقي شارلش هناك واقفاً غير عابئ. لم يشارك في العراك القصير، ولا يكاد يتحرك إلا ليمد يده إلى مسدس لونروت. وحين تكلم، استشعر لونروت في كلامه نبرة انتصار متعب، وكراهية بسعة الكون، وحزناً لا يقل اتساعاً عن تلك الكراهية.

رد شارلش: «كلا، بل أبحث عن شيء أسرع زوالاً وأكثر انفلاتاً منه، أبحث عن إريك لونروت. قبل ثلاث سنين، في بيت قمار في ريو دي تولون، ألقيتَ القبض على أخي، وتسببت بإرساله إلى السجن. وفي

Twitter: @ketab_n

تبادل إطلاق النار تلك الليلة، أخرجني رجالي في سيارة، ولكن بعد أن تلقيت رصاصة من شرطي في صدري. بقيتُ ممدداً تسعة أيام وتسع ليالٍ بين الحياة والموت في هذه الفيلا التناظرية المهجورة، أهلكتني الحمى، وأرعب وجه جانوس المزدوج البشع أحلامي ويقظتي. تعلمت بغض جسدي، تعلمت أن أشعر أن وجود عينين، ويدين، ورئتين لا يقل بشاعة عن وجهين. حاول رجل إيرلندي أن يهديني إلى الإيمان بالمسيح؛ كان لا يمل من إعادة مثَل الشعب الأثيم مراراً وتكراراً: كل الطرق تؤدي إلى روما. ليلاً، تتغذى أحلامي على هذه الاستعارة: كنت أشعر أن العالم متاهة، من المستحيل الإفلات منها، لأن الطرق، حتى ما يتظاهر منها بالذهاب شمالاً أو جنوباً، تعود في النهاية إلى روما، التي هي أيضاً السجن المستطيل الذي يقبع فيه أخي محتضراً، وهي أيضاً فيلا ترستي لي روي. في هاتيك الليالي، أقسمت بالإله الذي ينظر بوجهين، وبجميع آلهة الحمى والمرايا، أن أنسج متاهة حول الرجل الذي سجن أخي. وقد نسجتها، وآتت ثمارها: موادها هرطقات ميتة، وبوصلة، وعبادة من القرن الثامن عشر، وكلمة إغريقية، وخنجر، ومعينات مصنع الأصباغ...

«حصلت على الحلقة الأولى من هذه السلسلة بمحض المصادفة. وضعت مع بعض الزملاء – بينهم دانيال أزيفيدو– خطة للسطو على يواقيت الرباعية. لكن أزيفيدو استغفلنا. أنفق النقود التي أعطيناها له مقدماً على السكر واضطرنا إلى تنفيذ الخطة قبل موعدها بيوم. وقد

Twitter: @ketab_n

ضل طريقه في ذلك الفندق الضخم، وحوالي الساعة الثانية صباحاً اقتحم غرفة يارمولنسكي. كان يارمولنسكي، الذي يعاني من الأرق، جالساً يطبع على الآلة الكاتبة. ومثلما يريد القدر، كان يدون بعض الملاحظات، أو ربما يؤلف مقالة، حول اسم الله الأعظم؛ فرغ لتوه من كتابة جملة: **لقد كُتب الحرف الأول من الاسم.** طلب منه أزيفيدو أن يظل هادئاً؛ لكن يارمولنسكي مد يده إلى الجرس الذي كان سيصحي جميع من في الفندق؛ فطعنه أزيفيدو طعنة واحدة في صدره. كانت حركته انعكاسية تقريباً؛ فقد علمه ربع قرن أن أسهل الطرق وأسلمها هو القتل... بعد عشرة أيام عرفت من صحيفة «اليديش زايتنغ» أنك تحاول العثور على مفتاح لموت يارمولنسكي من خلال كتابات يارمولنسكي. كنت قد قرأت «تاريخ طائفة الهسيديين»؛ عرفت أن الخشية التبجيلية من نطق اسم الله تسببت في وجود مذهب يرى أن هذا الاسم كلي القدرة وملغز. عرفت أن بعض الهسيديين، بحثاً عن هذا الاسم الأعظم، قد ذهبوا إلى حد تقديم أضحيات بشرية... فهمتُ أنّك ستخمّن أن الهسيديين قد ضحوا بالحبر؛ فتصديت لتسويغ هذا التخمين لديك.

«مات يارمولنسكي ليلة الثالث من كانون الأول؛ فاخترت الثالث من كانون الثاني ليوم التضحية الثانية. وقد مات يارمولنسكي في الشمال، وكان من المفضل للضحية الثانية أن تموت في الغرب. كان من اللازم اختيار دانيال أزيفيدو كضحية ثانية. فقد استحق الموت؛ كان إنساناً متهوراً، خائناً؛ من شأن القبض عليه أن ينسف خطتنا برمتها.

Twitter: @ketab_n

فطعنه أحد رجالنا، وبغية الربط بين هذه الجثة والأخرى، كتبتُ على معينات محل الأصباغ: **لقد كُتب الحرف الثاني من الاسم.**

«وارتُكبت «الجريمة» الثالثة يوم الثالث من شباط. ولقد كانت مجرد خدعة، لا بدَّ أن تريفرانوس أحس بها، مجرد شبح. فأنا هو غريفيوس – غونزبرغ – غونسبرغ. قضيت أسبوعاً لا ينتهي (واضعاً على ذقني لحية زائفة من نسيج خفيف) في ذلك المكعب البليد على طريق دي تولون، حتى انتزعني منه أصدقائي. وحين كان أحدهما على عتبة المركبة، خربش على أحد الأعمدة الكلمات التي تتذكرها: لقد كُتب الحرف الأخير من الاسم. كانت تلك الجملة توحي بوجود سلسلة من ثلاث جرائم. في الأقل هذا ما يفهمه منها الإنسان العادي – لكني رميت لك مفاتيح، تدرك منها أنت، إيرك لونروت الفطن، أنها في الحقيقة أربع جرائم. علامة في الشمال، وعلامتان في الشرق والغرب، تستوجب علامة رابعة في الجنوب، لكي تكتمل الكلمة الرباعية، اسم الله، «يهوه»، الذي يتكون من أربعة حروف. يوحي المهرّجانِ وشعار مصنع الأصباغ بأربعة أركان. وأنا الذي وضعت الخطوط تحت الفقرة من كتاب ليوسدن. تقول الفقرة إن اليهود يحسبون يومهم من الغروب إلى الغروب، وهكذا تسمح الفقرة للمرء أن يفهم منها أن الميتات كانت تحصل في اليوم الرابع من كل شهر. وأنا من أرسلت المثلث المتساوي الأضلاع إلى تريفرانوس. كنت أعرف أنك ستضيف النقطة المفقودة، النقطة التي تكمل الشكل المعيني، النقطة التي تجعل المكان حيث ينتظرك

Twitter: @ketab_n

الموت تماماً. لقد فعلتُ كلَّ ذلك، يا إريك لونروت، خططت لهذا كله، لكي أجرَّكَ إلى عزلة تريستي لي روي».

تحاشى لونروت النظر إلى عيني شارلش. تطلع إلى الأشجار والسماء التي تنقسم إلى معينات حمراء وخضراء وصفراء. شعر بالقشعريرة، وبحزن لا شخصي يكاد يكون بلا ملامح. اظلمت الليلة الآن، ومن الحديقة المغبرة، ارتفعت صيحة طائر عقيم. ولآخر مرة فكّر لونروت بمشكلة الجرائم الدورية التناظرية.

وأخيراً قال: «الخطوط الثلاثة في متاهتك كثيرة جداً. أعرف متاهة إغريقية لا تحتوي إلا على خط مستقيم واحد. وعلى هذا الخط، تاه كثيرٌ من الفلاسفة بحيث يمكن أن يتيه مجرد شرطي إذا تُرك فيها. حين تصطادني، في تجسد آخر، أقترح أن تلفق (أو ترتكب) جريمة عند أ، وجريمة ثانية عند ب، على بعد ثمانية كيلومترات من أ، ثم جريمة ثالثة في ج، على بعد أربعة كيلومترات من أ وب، في منتصف الطريق بينهما. حينئذ انتظرني عند النقطة د، على بعد كيلومترين من أ وب، ومرة أخرى في منتصف الطريق بينهما. اقتلني عند د، تماماً مثلما أنت على وشك قتلي في تريستي لي روي».

أجاب شارلش: «في المرة القادمة، سوف أقتلك، أعدك، بمتاهة تتكون من خط مستقيم واحد غير منظور وبلا نهاية».

تراجع بضع خطوات. ثم أطلق النار بدقة بالغة.

1942

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المعجزة السرية

﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثتَ
قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم﴾
القرآن الكريم، سورة البقرة، 259

ليلة 14 آذار من عام 1939، في شقة في حي زلترنرغاس في براغ، حَلُمَ يارومير هْلاديك، مؤلف المأساة التي لم تكتمل، «الأعداء»، و«إثبات الأبدية»، وكاتب دراسة عن المصادر اليهودية غير المباشرة لدى يعقوب بوهمة، بلعبة شطرنج طويلة. وهي لعبة لم يكن يؤديها شخصان متقابلان، بل عائلتان شهيرتان. وقد بدأت اللعبة في الماضي قبل عدة قرون. ما من أحد يستطيع أن يجزم ماذا كانت الجائزة المنسية، ولكن شاع أنها كانت كبيرة، وربما لا تتناهى. كانت قطع الشطرنج ولوح الشطرنج نفسه مودعة في برج سريٍّ. وكان يارومير (في الحلم) الابن البكر لإحدى العائلتين المتنافستين. دقت ساعة النقلة التالية، غير القابلة للتأجيل، في جميع الساعات. كان الحالم يجري عبر رمال صحراء ممطرة، لكنه لم يستطع أن يتذكر اللاعبين أو قواعد لعبة الشطرنج. عند هذه النقطة،

Twitter: @ketab_n

استيقظ هلاديك. فتوقف ضجيج المطر والساعات المخيفة. وانبعث صوتٌ مموقع وجماعي، يقطعه إصدار أوامر، من شارع زلترنرغاس. انبلج الفجر، وكانت الطلائع المدرعة للرايخ الثالث تطوق براغ.

في التاسع عشر من الشهر، تلقت السلطات تقريراً من أحد المخبرين. وفي اليوم نفسه، مع حلول الغسق، أُلقي القبض على يارومير هلاديك. سيق إلى ثكنة سجن بيضاء معقمة على الضفة المقابلة لمولداو. ولم يستطع أن يبدد أية تهمة من التهم التي وجهها له الغستابو: لقب عائلة أمه هو ياروسلافسكي؛ وهو ينحدر من دم يهودي، ومقالته عن بوهمة كانت تعنى بموضوع يهودي، وتوقيعه من التواقيع المتهمة بخرق الإجماع العام والاحتجاج على الروابط الاجتماعية. في عام 1928، كان قد ترجم «سفر يزراح» لمطبعة هرمان بازدورف، وقد بالغ بيان منشورات الدار المطنب (كما تفعل في العادة بيانات المنشورات التجارية) بشهرة المترجم، وقد تمعن فيه النقيب يوليوس روثة، وهو أحد الضباط الذين يكمن مصيره في أيديهم الآن. وما من شخص خارج إطار معرفته الخاصة إلا وهو عرضة لسذاجة التصديق، وتكفي صفة أو اثنتان في الخط الغوطي لإقناع يوليوس بتفوق هلاديك، ولذلك يجب أن يُحكم عليه بالموت ليكون عبرة للآخرين. وتقرر أن يجري الإعدام يوم 29/ آذار، في تمام الساعة التاسعة صباحاً. ويعود التأخير (الذي سرعان ما سيكتشف القارئ أهميته) إلى رغبة السلطات في التعامل ببطء وتجرد، كالتعامل مع الكواكب أو الخضراوات.

Twitter: @ketab_n

كان رد فعل هلاديك الأول مجرد رعب بسيط. كان واثقاً أنه لن يقف أمام المشنقة ليعلق، أو يقطع رأسه، أو تسلخ حنجرته، لكن الموت أمام فرقة إطلاق النار فكرة لا تطاق. وعبثاً قال لنفسه آلاف المرات إن فعل الموت الخالص والعام هو الذي يثير المخاوف، وليس الظروف العينية التي تحيط به. مع ذلك لم يشعر هلاديك بالخوف أبداً وهو يتصور هذه الظروف. وبلا طائل، حاول أن يتنبأ بتنوعاتها جميعاً. استبق العملية بلا نهاية، من فجر الأرق حتى إفراغ البنادق الغامض. قبل مدة طويلة من اليوم الذي أطلَّ فيه يوليوس روثة، مات هلاديك مئات الميتات، واقفاً في الريف الذي تتمرد أشكاله وزواياه على الهندسة، يطلق النار عليه جنود تتغير وجوههم وتتفاوت أعدادهم، يستهدفونه حيناً عن بعد، وحيناً عن قرب شديد. ولقد واجه إعداماته المتخيلة بخوف حقيقي، أو ربما شجاعة حقيقية. استمرت كل صيغة عدة ثوانٍ؛ وحين تكتمل الدائرة وتطبق، كان هلاديك يعود، على مضض، إلى أمسية موته المرتجفة. وحينئذ رأى أن الوقائع نادراً ما تتطابق مع الطريقة التي نتخيلها بها سلفاً، وبمنطق مغلوط، استنتج أن التنبؤ بأي تفصيل محدد هو في الحقيقة منع لحدوثه. مطمئناً إلى هذا السحر الهزيل، بدأ يبتكر تفاصيل مهولة – حتى لا تحدث. وبالطبع كان ينتهي بالخشية أن تكون هذه التفاصيل نبوئية. حاول في لياليه الشقية أن يتشبث على نحو ما بمادة الزمن الهارب. كان يعرف أن الزمن يندفع منطلقاً نحو صباح التاسع والعشرين من آذار، ولقد فكر بصوت عالٍ: **إنها الآن ليلة الثاني**

Twitter: @ketab_n

والعشرين؛ وما دامت هذه الليلة والليالي الست التالية، فأنا محصن وأبدي. بدت له الليالي التي نام فيها أحواضاً عميقة مظلمة كان يجب أن ينغمر فيها. أحياناً، كان يتوق بنفاد صبر إلى الطلقات التي تنهي حياته مرة واحدة وإلى الأبد، وتخلصه، نحو الأحسن أو الأسوأ، من خيالاته العبثية. وفي اليوم الثامن والعشرين، حين كانت آخر شعاعات الشمس تلتمع فوق القضبان العالية لنافذته، صرفته صورة مسرحيته «الأعداء» عن أفكاره العقيمة.

تجاوز هلاديك الأربعين من العمر. وبمعزل عن قلة من الأصدقاء وكثير من العادات المتكررة، فقد شكلت مطاردة الأدب قوام حياته كلها، ومثل كل كاتب آخر، كان يقيس فضائل الآخرين بما أنجزوه، ويتساءل إن كان الآخرون يقيسونه بما خطط لفعله على نحو ما. وقد تركته جميع الكتب التي دفعها للطبع يأسف أسفاً مركباً. فقد كانت أبحاثه عن عمل بوهمة، وابن عزرا، وفلود، نتاج تطبيق مجرد من حيث الجوهر، وتتسم ترجمته لسفر «يزراح» بالتهاون والإرهاق والتخمين. وكان يحكم على كتابه «إثبات الأبدية» بأنه ربما أقلُّها مناقصَ؛ إذ كان الجزء الأول منه تاريخاً للأبديات المتشعبة التي ابتكرها الإنسان، بدءاً من الوجود الساكن عند بارمنيدس إلى الماضي القابل للتحوير عند هنتن، وينكر الجزء الثاني منه (بما يتوافق مع فرانسيس برادلي) أن تكون أحداث الكون جميعاً تشكل سلسلة زمنية. وهو يزعم أن عدد التجارب الممكنة عند الإنسان ليس باللامتناهي، بل يكفي «تكرار» واحد للكشف أن

Twitter: @ketab_n

الزمن هو مغالطة...ولسوء الحظ، فإن الحجج التي تبرهن على هذه المغالطة لا تقل عنها مغالطةً: فقد اعتاد هلاديك أن يمر عليها بشيء من الحيرة المزرية. كما أنه كتب سلسلة من القصائد التعبيرية، وظهرت هذه القصائد، لفرط خيبة كاتبها، عام 1924 في مجموعة شعرية، ولم تلحق بها أية مجموعة تالية ترث خصائصها أبداً. كان هلاديك يتطلع إلى تخليص نفسه من ماضيه الملتبس والفاتر في مسرحيته الشعرية الأولى «الأعداء». (وكان يفضل الشعر في المسرح لأنه لا يسمح للمشاهدين بنسيان الافتعال الخيالي، الذي يشكل الشرط الضروري للفن).

حافظت المسرحية على الوحدات الدرامية في الزمان والمكان والفعل. تجري أحداثها في «هْرادكاني»، في مكتبة البارون رومرشتات، في أمسية من أواخر أماسي القرن التاسع عشر. في أول مشهد من الفصل الأول، يقوم غريب بزيارة رومرشتات. (تدق الساعة السابعة تماماً، فيضيء اتقاد الشمس الغاربة ألواح زجاج النافذة، وينقل النسيم لحناً موسيقياً هنغارياً أليفاً وجذاباً). وسرعان ما يتبع الزيارة آخرون، ولم يكن رومرشتات ليعرف من جاءوا لإزعاجه، غير أنه استولى عليه انطباع غير مريح أنه رآهم من قبل، ربما في حلم. وقد توددوا جميعاً له، ولكن كان من الواضح، في البداية لجمهور المسرحية، ثم للبارون نفسه، أنهم أعداء سريون، أقسموا على تدميره. يقرر رومرشتات أن يتفوق على دهاء حيلهم المعقدة أو يتملص منها. وفي مساق الحوار، يلمّح أحدهم إلى خطيبته، جوليا دي ويدناو، وإلى شخص اسمه ياروسلاف كوبن، تطفل

Twitter: @ketab_n

عليها ذات مرة بأنه عاشق لها. والآن، فقد جُنَّ كوبن، وصار يتراءى له أنه رومرشتات... وتتضاعف المخاطر. إذ يضطر رومرشتات، مع نهاية الفصل الثاني، إلى قتل أحد المتآمرين. فيبدأ الفصل الثالث والأخير. ورويداً رويداً، تزداد التوترات. يعاود الظهور ممثلون بدا أنهم قد أُهملوا، ويعود إلى الظهور الرجل الذي قتله رومرشتات، لحظة من الزمن. يلاحظ أحدهم أن وقت النهار لم يتقدم: إذ ما زالت الساعة تدق السابعة، وأشعة شمس الغروب تتموج على ألواح زجاج النافذة، ومازال النسيم ينقل اللحن الهنغاري الأليف. يظهر على المسرح المتحدث الأول، ويكرر نطق الكلمات التي تحدث بها في المشهد الأول من الفصل الأول. ومن دون أدنى ارتباك أو مفاجأة، يخاطبه رومرشتات؛ حينئذ يدرك الجمهور أن رومرشتات هو المعذب ياروسلاف كوبن. فلم تجر أحداث المسرحية أبداً، بل هي الهذيان الدوري الذي لا يكفّ ياروسلاف كوبن عن العيش فيه وتجربته.

لم يسأل هلاديك أبداً ما إذا كانت كوميديا الأخطاء المأساوية التي كتبها مبتذلة أم محط إعجاب، وذات بناء محبوك أم مجموعة مصادفات. أدرك بحدسه أن هذه الحبكة كانت أفضل طريقة مناسبة لإخفاء عيوبه وإظهار مصادر قوته، وهذا ما مثل عنده إمكان إنقاذ (وإن يكن رمزياً) لقوام حياته. أنجز الفصل الأول منها ومشهداً أو آخر من الفصل الثالث، وسمحت له الطبيعة الوزنية للمسرحية أن يراجعها باستمرار، مصححاً الأوزان السداسية، من دون الرجوع إلى المخطوطة. وفكر أنه بقي لديه

Twitter: @ketab_n

فصلان يجب كتابتهما، وأنه قد يواجه الموت سريعاً. وفي الظلمة تكلم مع الله متوسلاً: **إذا كنتُ موجوداً حقاً، إذا لم أكن مجرد تكرار أو خطأ من تكراراتك، فأنا أوجد بوصفي مؤلف «الأعداء»، ولكي أُكمل هذه المسرحية، التي تبرر وجودي كما تبرر وجودك، أحتاج إلى سنة أخرى. هبني هذه السنة، يا من لديك القرون كلها والزمان كلُّه.** وكانت آخر الليالي، ليلة من أكثرها هولاً، ولكن بعد عشر دقائق، كلكل النوم على هلاديك مثل بحر مظلم.

قرابة الفجر، حلم بأنه كان مختفياً، في إحدى ردهات «المكتبة الكليمنسية». سأله مكتبي يضع نظارة سوداء: ما الذي تبحث عنه؟ أجاب هلاديك: أبحث عن الله. قال المكتبي: **الله حرف من الحروف على إحدى الصفحات في أربعمائة ألف مجلد في المكتبة الكليمنسية. وكان آبائي وآباء آبائي يبحثون عن هذا الحرف، وقد عميتُ وأنا أبحث عنه.** نزع نظارته، فرأى هلاديك عينيه، وكانتا ميتتين. اقترب أحد القراء لكي يعيد أطلساً. قال: **هذا الأطلس لا قيمة له،** وناوله لهلاديك، الذي فتحه كيفما اتفق. وفي شرود مهوم، رآى خارطة للهند. وبيقين مفاجئ وقع نظره على حروف صغيرة. وتكلم معه صوتٌ غمر المكان كلَّه: **لقد أُعطيتَ الوقت لإنهاء عملك.** وهنا استيقظ هلاديك.

تذكَّرَ أن أحلام البشر تنتمي إلى الله، وأن موسى بن ميمون كتب أن كلمات الحلم، حين تكون واضحة ومتميزة ولا يرى الحالم من يتكلم معه، هي كلمات مقدسة. لبس هلاديك ملابسه، فدخل جنديان إلى زنزانته وأمراه بأن يتبعهما.

Twitter: @ketab_n

من وراء باب الزنزانة، تصور هلاديك متاهةً من الممرات والسلالم التي توصل إلى قواطع. أما الواقع فكان أقل ثراءً، هبط هو والجنديان نازلين من خلال سلم حديدي إلى ساحة خلفية. كان هناك بعض الجنود – ممن لم يزرروا ملابسهم الرسمية – يتفحصون دراجة، ويتناقشون بشأنها. نظر الرقيب إلى ساعته؛ كانت تشير إلى الثامنة وأربع وأربعين دقيقة. ويجب أن ينتظروا حتى التاسعة. جلس هلاديك، وهو يشعر بعدم الاكتراث أكثر من سوء الحظ، على كوم من الحطب. لاحظ أن عيون الجنود تتحاشى الالتقاء بعينيه. قدم له الرقيب سيجارة، ليهوِّن الانتظار عليه. لكن هلاديك لم يكن يدخن. فقبل السيجارة من باب التأدب أو التواضع. وحين أشعلها، لاحظ أن يديه ترتجفان. كان النهار ملبداً، والجنود يتحدثون بأصوات خفيضة، كما لو أنه ميت أصلاً. عبثاً حاول أن يتذكر المرأة التي كانت ترمز إليها جوليا دي ويدناو...

اصطف فريق إطلاق النار، وانتظموا في حالة استعداد. انتظر هلاديك، وهو يقف وظهره إلى حائط السجن، انهمار الرصاص. أبدى أحدهم خشيته أن يصطبغ الحائط بالدم؛ فأمر السجين بالتقدم بضع خطوات إلى الأمام. فتذكر هلاديك، على نحو غير معقول، المناورات التمهيدية للمصورين. خدشت قطرة ثقيلة من المطر صدغ هلاديك وانحدرت ببطء على خده؛ فأطلق الرقيب أمره النهائي.

توقف العالم المادي ساكناً.

تصوبت البنادق نحو هلاديك، لكن الرجال الذين كان عليهم أن

Twitter: @ketab_n

يقتلوه ظلوا بلا حراك. بدا أن ذراع الرقيب تجمدت، إلى الأبد، في إيماءة لم تحسم. وعلى بلاطة من بلاطات الساحة، ألقت نحلة ظلاً لا يتحرك. وكأنما في لوحة، خبت الريح وتوقفت. حاول هلاديك أن يطلق صرخة، أو صوتاً، أو أن يثني يده. أدرك أنه أصابه الشلل. لم يعد يسمع أدنى نأمة للعالم المتوقف. فكّر مع نفسه: أنا في العالم الآخر، أنا ميت. فكر مع نفسه: لقد جُننتُ. فكر مع نفسه: لقد توقف الزمن. ثم فكّر أنه لو كان ذلك صحيحاً، لتوقف تفكيره أيضاً. أراد أن يتفحص هذا الاحتمال: أنشد (دون أن يحرّكَ شفتيه) النشيد الرعوي الرابع الغامض لفرجيل. وتخيل أن الجنود، الذين صاروا بعيدين الآن، كانوا يشاركونه هذا القلق، فتمنى لو أنه يستطيع الاتصال بهم. ولقد اعتراه الذهول حين لم يشعر بالتعب أو الفتور من سكونه الطويل. بعد فترة غير محددة من الزمن، غطَّ في النوم. وحين استيقظ، كان العالم ما زال بلا حراك وخامداً. ما زالت قطرة الماء تترقرق على خده، وفي الساحة، ما زال ظل النحلة متشبثاً في موضعه، وفي الهواء، ما زال الدخان المتصاعد من سيجارته التي دخنها يتطاير. ولقد مرَّ «يوم» آخر قبل أن يفهم هلاديك ما حصل له.

لقد سأل الله أن يبقيه سنة كاملة يمكنه فيها أن ينهي عمله؛ فأعطاه الله بقدرته الشاملة تلك السنة. أعد الله من أجله معجزة سرية: كان ينبغي أن تقتله الطلقة الألمانية، في ساعة أجله المحددة، أما في عقله فكان ينبغي أن تتقضى سنة كاملة بين الأمر بإطلاق النار وتنفيذ الحكم. انتقل هلاديك

Twitter: @ketab_n

من الحيرة إلى الانشداه، ومن الانشداه إلى التسليم، ومن التسليم إلى الامتنان المفاجئ.

لم تكن لديه وثيقة سوى ذاكرته، ولقد فرضت عليه رغبته في السيطرة على الأوزان السداسية، حين أضافها، نوعاً من الانضباط المريح، لم يكن يتخيله أولئك الهواة الذين ينسون المقاطع الخاطفة الغامضة. لم يعمل من أجل الأجيال القادمة، كما لم يعمل من أجل الله، الذي يمثل الأداء الأدبي عنده شيئاً مجهولاً إلى حد كبير. وبمشقة، وبلا حراك، وبسرية، صاغ في الزمن متاهته الخفية الكبرى. أعاد كتابة الفصل الثاني مرتين. وحذف بعض الرموز الغامضة جداً، مثل تكرار قرع الساعة أو الموسيقى. لم يضايقه أي تفصيل أو حالة. اقتطع بعض الأجزاء، وكثّف وأطال أخرى، وفي بعض الأحيان، كان يختار القطع الأولى. صار يحب الساحة، والسجن، وغيّر أحد الوجوه التي تمثل أمامه مفهومه عن شخصية رومرشتات. اكتشف أن النشازات القاسية التي تتخلل فلوبير ليست سوى خرافات بصرية – فالضعف والتقطع موجود في الكلمة المكتوبة، وليس في الكلمة المنطوقة... أكمل مسرحيته، ولم يبق منها الآن سوى نعت واحد. ولقد وجده، ترقرقت قطرة المطر على خده. أطلق صرخة وحشية، وأدار وجهه جانباً. فأسقطه انهمار الرصاص عليه.

مات يارومير هلاديك في التاسع والعشرين من آذار، في تمام الساعة التاسعة ودقيقتين.

1943

Twitter: @ketab_n

صور يهوذا الثلاث

«يبدو أن في الإهانة يقيناً»

ت. أ. لورانس: أعمدة الحكمة السبعة

في آسيا الصغرى أو في الإسكندرية، في القرن الثاني من حقبة إيماننا، (أيام كان باسيليدس يزعم أن الكون هو ارتجال طائش وشرير تطلقه ملائكة تفتقر إلى الكمال)، لابدَّ أن نيلز رونيبيرغ كان سيترأس، بانفعال عقلي فريد، أحد الاجتماعات السرية الغنوصية. وربما عهد به «دانتي» إلى أحد مدافن النار، وربما ساعد اسمه في تضخيم مسارد الهراطقة الصغار، بين «ساتورنيلوس» و«كاربوكراتيس»، وربما حُفظت بعض الشذرات من تبشيره، مزوقة بمطاعنه، ودُوِّنت للأجيال القادمة في الكتاب المنحول (Liber adversus omnes hearses)، أو أنها اندثرت حين التهمت النيران في مكتبة الدير آخر نسخة من كتاب (Syntagma). لكن الله، بدلاً من ذلك، أراد له أن يظهر في القرن العشرين، في المدينة الجامعية «لوند». وهناك، في عام 1904، نشر الطبعة الأولى من كتابه (Kristus och Judas)؛ وهناك، عام 1909، ظهرت

Twitter: @ketab_n

رائعته (Dem hemlige Fralsaren). (وتوجد من العمل ترجمة ألمانية عنوانها (Der heimliche Heiland) ترجمها عام 1912 إميل شيرنغ).

وقبل الشروع بفحص الأعمال التالية، لا بد من تكرار القول إن نيلز رونيبيرغ، العضو في الاتحاد الإنجيلي الوطني، كان متديناً بعمق. وربما أعاد شخص أدبي ما في صالون في باريس، أو حتى في بوينس آيرس، اكتشاف ما طرحه رونيبيرغ، فقد كان مفتاحاً يزيل به النقاب عن لغز مركزي في اللاهوت، كان قضية تأمل وتحليل، ونقاش تاريخي وفلسفي، وسمو ورعب. وقد برر حياته ودمّرها. وكل من يتقصى مقالته لا بدَّ أن يعرف أنها لا تذكر إلا النتائج التي استخلصها رونيبيرغ، وليس جدله أو براهينه. وقد يقول قائل إن النتيجة التي يستخلصها تسبق «براهينه» دون ريب. ولكن من يستطيع أن يكتفي بالبحث عن براهين على شيء لا يؤمن هو نفسه به، أو أن يتوقع ما لا يبالي هو نفسه به؟

تحمل الطبعة الأولى من كتاب (Kristus och Judas) العنوان الفرعي الصنفي التالي، الذي أسهب فيه نيلز رونيبيرغ بعد ذلك بسنوات على نحو مستفيض: **لا يقتصر الأمر على زيف شيء واحد، بل على زيف جميع الأشياء التي تنسبها التقاليد إلى يهوذا الأسخريوطي** (دي كوينسي، 1857). مدفوعاً بتأملات مفكر ألماني قبله، رأى دي كوينسي أن يهوذا سلم المسيح لكي يضطره إلى الإعلان عن ألوهيته ويطلق العنان لثورة عارمة ضد نير روما؛ يقترح رونيبيرغ إثباتاً من طبيعة **ميتافيزيقية**. وبذكاء، يبدأ من سطحية الفعل الذي قام به يهوذا. ويلاحظ (كما لاحظ روبرتسن)

Twitter: @ketab_n

أن تحديد هوية معلم يبشر يومياً في مجمع الكنيس ويعمل المعجزات أمام أنظار آلاف الناس، لا يحتاج إلى خديعة أحد من رسل المعلم. وهذا بالضبط هو ما حصل. وافتراض وجود خطأ في الكتابات المقدسة أمرٌ لا يطاق، لكنه أمرٌ لا يطاق أيضاً بالدرجة نفسها افتراض فعل عشوائي مقحم على أثمن الأحداث في تاريخ العالم. (Ergo) إذن، فخيانة يهوذا لم تكن فعلاً عشوائياً؛ بل هي فعل مقرر أملته عليه مكانته السرية في اقتصاد التخليص. ويستمر رونيبيرغ: إن «الكلمة» حين تجسد دماً ولحماً، انتقل من كلية الحضور إلى المكان، ومن الأبدية إلى التاريخ، ومن النعيم غير المحدود إلى التغير والموت؛ ولجزاء هذه التضحية، كان لا بد لإنسان (يمثل البشرية كلها) أن يقوم بتضحية مماثلة. وكان يهوذا الأسخريوطي هو ذلك الإنسان. وحده يهوذا، من بين جميع الرسل، أحسَّ بألوهية يسوع السرية وهدفه الرهيب. فقد نزلت «الكلمة» بنفسها لتكون بشراً فانياً، وأنزل يهوذا، حواري الكلمة، نفسه ليكون الواشي النمام (في أسوأ جرم يحمله العار) ويسكنَ في نيران اللهب المتقد. مثلما في الأسافل، تكون الأعالي؛ فأشكال الأرض تتجاوب مع أشكال السماء، والبقع على الجلد هي خارطة للكواكب التي لا تفسد، ويهوذا هو على نحو ما انعكاس ليسوع. من هنا تأتي قطع الفضة الثلاثون والقبلة، ومن هنا يأتي التدمير المتعمد للذات، لكي يستحق اللعن حقاً. هكذا يفسر نيلز رونيبيرغ لغز يهوذا.

لكن لاهوتيي جميع المذاهب عارضوا هذا التفسير ودحضوه. اتهمه

Twitter: @ketab_n

لارس بطرس إنغستروم بتجاهل وحدة الأقانيم في الثالوث الإلهي، واتهمه أكسل بوريليوس بإحياء هرطقة «الدوستيين»، الذين أنكروا إنسانية يسوع، واتهمه أسقف لوند الفولاذي بمناقضة الإصحاح 22، الآية 3، من الإنجيل بحسب القديس لوقا.

أثّرت عقوبات «الحِرْم» المتنوعة هذه في رونيبيرغ، الذي أعاد جزئياً كتابة الكتاب المستنكر وعدّل مذهبه. تخلى عن الأساس اللاهوتي لدى خصومه واقترح حججاً غامضة من طبيعة أخلاقية. قَبِلَ بأن يسوع «الذي تزوّد بزاد هائل من الموارد التي يمكن أن يقدمها الحضور الكلي» لم يكن بحاجة لإنسان ينفذ خطته لتخليص البشرية كلها. ثم دحض من يدَّعون أننا لا نعرف شيئاً عن الخائن المتعذر تصوره. قال رونيبيرغ إننا نعرف أنه كان أحد الرسل، كان واحداً ممن اختيروا لإعلان «ملكوت السموات»، وإشفاء المرضى، وتطهير المجذومين، وإحياء الموتى، وطرد الشياطين (متى 10: 7–8، ولوقا 9: 1). وإنسان يختاره المخلص ويميزه على هذا النحو يستحق منا أحسن التأويلات لأعماله. وتعليل جرمه بالجشع (كما فعل بعضهم، وهو يستشهد بيوحنا 12: 6) إنما يعني الرضا بأضعف الدوافع. اقترح نيلز رونيبيرغ دافعاً على الطرف الأقصى المقابل: ألا وهو الزهد المبالغ فيه، وحتى غير المحدود. والزهد، في سبيل مجد الله الأعظم، يهين الجسد ويحصنه، وقد أهان يهوذا الروح وحصنها. رفض المجد والسؤدد والسلام وملكوت السموات، في حين

Twitter: @ketab_n

يرفض الآخرون اللذائذ، ببطولية أقل[1]. وقد خطط لخطاياه بوضوح رهيب. في الزنى، يؤدي اللطف ونكران الذات دورهما في العادة، وفي الجريمة، الشجاعة؛ وفي التجديف والتدنيس، هناك نوع من الحماس الشيطاني. وقد اختار يهوذا خطايا تخلو من الفضيلة: سوء استخدام الثقة (يوحنا 12: 6) والخيانة. عمل بتواضع جبار: وكان مقتنعاً أنه لا يستحق أن يكون جيداً. كتب بطرس قائلاً: «من افتخر، فليفتخر بالرب» (كورنثوس 1: 31). وقد بحث يهوذا عن الجحيم لأن رضوان الرب كان كافياً عنده. وفكر أن السعادة، كالخير، صفة إلهية، لا ينبغي أن يغتصبها البشر[2].

اكتشف كثيرون، بعدياً، أن نهاية رونيبيرغ المتطرفة تكمن في بداياته المبررة، وأن كتابه (Dem hemlige Fralsaren) ليس سوى تشويه وإفساد لكتابه (Kristus och Judas). وقرابة نهاية عام 1907، انتهى رونيبيرغ من مراجعة نص المخطوطة، ومرت سنتان تقريباً دون

(1) يتساءل بوريليوس ساخراً: لم لم يرفض الرفض، لم لم يرفض رفض الرفض؟

(2) في كتاب يجهله رونيبيرغ، يلاحظ أقليدس الكونهوي أن الفضيلة عند مبتدع «كانودوس»، أنطونيو كونزيلرو، كانت «نوعاً يقرب من الجحود». وقد يتذكر القارئ الأرجنتيني الفقرات المماثلة في عمل ألمافيورت. ونشر رونيبيرغ في المجلة الرمزية (Sju insegel) قصيدة وصفية لطيفة عنوانها «المياه السرية»، تروي الأبيات الأولى منها أحداث يوم هائج؛ وتروي المقاطع الأخيرة اكتشاف «حوض» جليدي. وتوحي القصيدة أن أبدية هذا الماء الساكن تصوب عنفنا غير المجدي، وتسمح به على نحو ما وتبيحه. وتنتهي القصيدة على النحو التالي:

ماء الغابة ساكن رقيق،
ونحن يمكننا أن نغط في الشرور والألم.

Twitter: @ketab_n

أن يسلمه إلى الناشر. وفي تشرين الأول من عام 1909، ظهر الكتاب بمقدمة فاترة (إلى حد الإلغاز) كتبها العبراني الدنماركي إريك إرفخورد، وهو يحمل العنوان الفرعي التالي: «**كان في العالم، وكُوّن العالم به، ولم يعرفه العالم**» (يوحنا 1: 10). وليست أطروحة الكتاب بالفكرة المعقدة، وإن كانت النتيجة التي يستخلصها رهيبة. يرى نيلز رونيبيرغ أن الرب هبط ليكون إنساناً من أجل تخليص العرق البشري، ومن المعقول أن نفترض أن التضحية التي قام بها كانت تامة، لا يمكن أن تنسخها وتوهنها الغفلات. وحصْرُ معاناته بعذاب عشية واحدة على الصليب إنما هو تجديف بحقه[1]. وينطوي الزعم بأنه كان إنساناً، والزعم أنه لا يجوز أن يوصف بالخطيئة على تناقض؛ لأن صفتي «الصمدية» (imeccabilitas) والإنسانية (humanitas) لا تتساوقان. ويقر (كيمنتز) أن المخلص ربما شعر بالإرهاق والبرد والارتباك والجوع والعطش، ومن المعقول أيضاً أن يرتكب الخطيئة ويُلعن. ويمثل النص الشهير في (أشعياء 53: 2–3): (**سوف ينبت أمامه كغرس طري، كعرق من أرض يابسة، وحتى نتطلع إليه، لا صورة له ولا جمال، محتقر ومخذول من الناس**) عند كثير من الناس إلماحاً إلى المسيح الصليب في ساعة موته. وعند آخرين (منهم هانز لاسن

(1) ينتقد إرفخورد، في فقرة أضافها في الملحق الثالث لكتابه (Christelige Dogmatik) قطعة كتبها موريس أبراموفتش حول صلب المسيح. وهو يلاحظ أن صلب الرب لم ينتهِ. لأن ما حدث في الزمان يتكرر بلا نهاية في الأبدية. فما زال يهوذا يمد يديه طالباً قطع الفضة، وما زال يقبّل خدَّ يسوع، وما زال يفرق الفضة في الهيكل، وما زال يعقد الأحابيل في حقل الدم. (ولكي يسوّغ إرفخورد هذه الصياغة، يستشهد بالفصل الأخير من الجزء الأول من عمل ياروسلاف هلاديك: إثبات الأبدية).

Twitter: @ketab_n

مارتنسن، مثلاً) إنما هو دحض للجمال الذي ينسبه الإجماع الشعبي للمسيح؛ عند رونيبيرغ، تمثل هذه الآيات نبوءة مفصلة ليس عن لحظة واحدة، بل عن المستقبل الفظيع بأسره، في الزمان وفي الأبدية، للكلمة وقد تجسدت لحماً ودماً. تجسد الرب إنساناً بالكامل، لكنه إنسان إلى حد العار، إنسان إلى حد الاستنكار، إلى حد الضياع في اللجة. فلكي ينقذنا، كان بوسعه أن يختار أياً من المصائر التي ترفرف معاً في نسيج التاريخ المتواشج: كان بوسعه أن يكون الإسكندر الكبير، أو فيثاغورس، أو روريك، أو يسوع، لكنه اختار قدراً وجودياً وضيعاً، فكان يهوذا.

وعبثاً قدمت مكتبات ستوكهولم ولوند هذا الوحي للقراء. اعتبره الشكاك، قبلياً، لعبةً لاهوتية غثة مضجرة، بينما احتقره اللاهوتيون. وأحس رونيبيرغ في هذا التجاهل الكوني لعمله تأكيداً إعجازياً له. إذ لم يُرِد الله لسرّه الرهيب أن يذيع على امتداد الأرض. أدرك رونيبيرغ أن الساعة لم تحن بعد. شعر بأن اللعنات القديمة والإلهية تنصب عليه. تذكر اليسع وموسى، اللذين غطيا وجهيهما على قمة الجبل حتى لا يريا الله؛ تذكر أشعياء، الذي ارتعب حين وقعت عيناه على «الواحد» الذي يملأ مجده الأرض، وشاؤول الذي عميت عيناه في الطريق إلى دمشق، والحبر سمعان بن عزاي، الذي رأى الجنة ومات، والعراف الشهير يوحنا الفتروبي، الذي جُنَّ حين انكشف له الثالوث، والمدراشيين الذين يبغضون من ينطق (هاشيم هامافورش)، اسم الله السري. أليس هو، رونيبيرغ، من ارتكب تلك الخطيئة السوداء؟ ألا يمكن أن يكون

Twitter: @ketab_n

ذلك تجديفاً بحق روح القدس، (متى 12: 31)، لن يُغتفر أبداً؟ لقد مات فاليريوس سورانوس لمجرد كشفه عن الاسم السري لروما؛ فأية عقوبة لا تتناهى ستنزل بحق رونيبيرغ لبيانه وكشفه اسم الله الرهيب؟

مخموراً بالأرق والجدل المحير، صار نيلز رونيبيرغ يتسكع في شوارع مالمو، متوسلاً من أجل المباركة – عسى أن يحظى بمشاركة الجحيم مع المخلص.

مات بتمزق الأوعية الدموية الانفجاري في الأول من آذار عام 1912. ولا شك أن مؤرخي البدع والهرطقات سوف يتذكرونه؛ فقد أضاف لمفهوم «الابن»، الذي يبدو أنه استنفد، تعقيدات البؤس والشر.

1944

Twitter: @ketab_n

النهاية

ممدداً على ظهره، فتح ريكابارين عينيه قليلاً، ورأى السقف المائل المصنوع من القصب الغليظ. ووصلت إلى مسمعه من الغرفة الأخرى دندنة قيثار مثل متاهة صغيرة، تتسع وتضيق بلا نهاية. ورويداً رويداً، رجع إلى الواقع، وعادت له الأشياء العادية التي هي دائماً هذه الأشياء العادية. ألقى نظرة خالية من الشفقة على جسده الضخم المعطل، وعلى عباءة البونتش الصوفية التي تدثر ساقيه. في الخارج، وراء قضبان نافذته السميكة، يمتد السهل المنبسط والمساء؛ لقد أغفى، لكن السماء ما زالت مليئة بالنور. تلمس بذراعه اليسرى حتى وجد الجرس النحاسي المعلق على قدم السرير. هزَّه مرةً أو مرتين، ومن خارج غرفته استمرت تصله النغمات المتواضعة.

كان العازف على القيثار رجلاً زنجياً أظهر ذات ليلة زهوه بأنه مغنٍّ؛ كان قد تحدى غريباً آخر في نزاع غنائي، مثلما يفعل المغنون الرحالة. وبعد هزيمته، استمر يستعرض عند السوق العمومية ليلة بعد ليلة، كأنما كان ينتظر شخصاً ما. كان يقضي الساعات عازفاً على القيثار، لكنه لم يغنِّ مرة أخرى، ولعل الهزيمة أشعرته بالمرارة. وقد اعتاد الناس على هذا

Twitter: @ketab_n

العازف المسالم. ولن ينسى ريكابارين، صاحب المحل، ذلك النزاع؛ لأنه في اليوم التالي له، حين كان يحاول ترتيب حمل الشراب على ظهر البغل، مات جانبه الأيمن فجأة، واكتشف أنه فقد القدرة على الكلام.

بتعلمنا الإشفاق على سوء الحظ الذي يلازم أبطال الروايات، نتعلم أيضاً أن نضفي الشفقة على سوء حظوظنا، لكن هذه لم تكن حال ريكابارين، الذي رضي بشلله، كما رضي من قبل بالعزلة الشديدة لأمريكا. عوَّد نفسه أن يعيش في الحاضر، كما تعيش الحيوانات، وها هو يتطلع إلى السماء ويفكر أن الحلقة الحمراء حول القمر هي علامة على المطر.

فتح الباب صبي بملامح هندية (ربما كان أحد أبناء ريكابارين) نصف فتحة. فسأله ريكابارين بعينيه عما إذا كان في المحل أحد. فأجاب الصبي، الذي لم يكن يحب الكلام كثيراً، بتحريك يديه أنه لا يوجد أحد – بالطبع لا يدخل الزنجي في الحساب. حينئذ تُرك الرجل الممدد وحده؛ فعبثت يده اليسرى بالجرس، كأنما هو يمارس بعض قوته.

في آخر شعاعات الشمس، كانت السهول مجردة تقريباً، كأنما هي تُرى في الحلم. تمايلت نقطة في الأفق، ولم تلبث أن اتضحت لتتحول إلى فارس يعتلي جواداً، أو بدت هكذا، متجهاً نحو البيت. تبين ريكابارين القبعة العريضة، والعباءة الغامقة، والجواد الأرقط، لكنه لم يتبين وجه الفارس، الذي شكم أخيراً عنان جواده، مهرولاً في حركة خفيفة، وهو يقترب من البيت. وعلى بعد مائتي ياردة استدار استدارة حادة. وعند

Twitter: @ketab_n

ذاك، اختفى الرجل عن نظر ريكابارين، لكنه سمعه يتحدث ويترجل عن جواده، ويشده إلى السارية، وبخطى ثابتة يدخل إلى المحل.

دون أن يرفع الزنجي عينيه عن القيثار، حيث بدا أنه ينظر إلى شيء ما، قال الزنجي بلطف:

«كنت واثقاً، يا سيدي، أنني أعد الأيام لك».

أجاب الرجل الآخر بصوت خشن:

«أنا أيضاً كنت واثقاً أعد الأيام لك، أيها الزنجي، لقد جعلتك تنتظر كل هذه الأيام، ولكن ها أنا ذا».

ساد الصمت. فتكلم الزنجي مرة أخرى:

«لقد تعودت على الانتظار. انتظرت سبع سنوات».

من دون تعجل، أوضح الرجل الآخر:

«بقيت أكثر من سبع سنوات دون رؤية أطفالي. رأيتهم ذلك اليوم، لكنني لم أردْ أن أبدو بمظهر إنسان يتشوق دائماً إلى القتال».

قال الزنجي: «أدركتُ ذلك. أفهم ما تقوله. وأرجو أنك تركتهم بصحة جيدة».

أطلق الغريب، الذي جلس على البار، تنهيدة عميقة. طلب شراباً، وارتشف منه رشفة أو رشفتين، دون أن يعبه في جوفه.

قال: «نصحتهم نصيحة جيدة، نصيحة لا تخيب ولا تكلف شيئاً. قلت لهم، بين ما قلت، إن الإنسان يجب ألا يسفك دم إنسان آخر».

سبقت نغمة بطيئة جواب الزنجي:

Twitter: @ketab_n

«حسناً فعلت. بهذه الطريقة لا يكونون مثلنا».

قال الغريب: «على الأقل، ليس مثلي». ثم أضاف وكأنه يفكر بصوت عال: «لقد جعلني القدر قاتلاً، وها هو الآن يضع سكيناً في يدي مرة أخرى».

علق الزنجي متجاهلاً كأنه لم يسمع:

«حل الخريف وصارت الأيام أقصر».

رد الغريب، وهو ينهض على قدميه: «النور المتبقي يكفيني».

وقف بمواجهة الزنجي وقال بصوت متعب: «اترك القيثار الآن. فهناك نوع آخر من المواجهة ينتظرك اليوم».

مشى الرجلان نحو الباب. وتمتم الزنجي، وهو يخرج:

«ربما تكون هذه المرة أقل صعوبة عليَّ من المرة الأولى».

أجاب الرجل الآخر جاداً: «لم تكن المرة الأولى صعبة عليك. ما حصل أنك كنت تتوق للمحاولة الثانية».

ابتعدا عن البيوت مسافة كافية، وهما يمشيان جنباً إلى جنب. كان كل موضع في السهل صالحاً مثل غيره، وكان القمر ساطعاً. فجأة تطلعا إلى بعضهما، وتوقفا، ونزع الغريب مهمازه. وكانت عباءات البونتش تدثر سواعدهما، حين قال الزنجي:

«أود أن أطلب منك معروفاً قبل أن نشتبك. أودك أن تتحلى بكل ما لديك من شجاعة، كما فعلتَ قبل سبع سنوات، حين قتلتَ أخي».

ربما للمرة الأولى في حوارهما، سمع مارتن فيرو صوت الكراهية.

Twitter: @ketab_n

شعر أن دمه مِسْعرٌ حاد النصل. فاصطدما، ووسمت الحديدة الحادة وجه الزنجي.

حلت ساعة في المساء تبدو فيها السهول على حافة أن تقول شيئاً ما، لا تقوله أبداً، أو ربما تقوله – بلا نهاية – وإن كنا لا نفهمه، أو ربما نفهمه، لكن ما تقوله شيء لا يُترجم مثل الموسيقى... من سريره، رأى ريكابارين النهاية. طعنة واحدة، وتداعى بعدها الزنجي متراجعاً؛ فقد توازنه، متظاهراً بأنه يصوب نحو وجه خصمه، ثم اندفع بطعنة عميقة دفنت السكين في أحشائه. ثم جاءت طعنة أخرى، لم يستطع صاحب المحل أن يراها، ولم ينهض فيرو بعدها. بلا حركة، بدا الزنجي كأنه يراقب موت عدوه المعذب. مسح سكينه المغطاة بالدماء في العشب، ومشى ببطء نحو البيوت، دون أن ينظر إلى الخلف. لقد أكمل مهمة الثأر، ولم يعد الآن أحداً. لقد أصبح الغريب، ولم تعد له مهمة على الأرض، أو مصير ينتظره، فقد قتل رجلاً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عبادة العنقاء

من يكتبون أن عبادة «العنقاء» ترجع أصولها إلى مدينة «عين شمس» (Heliopolice)، ويزعمون أنها تستقي من الإصلاح الديني الذي تبع موت المصلح «أمنحوتب الرابع»، يستشهدون بكتابات هيرودوت وتاسيتوس والنقوش على الأنصاب المصرية، لكنهم يغفلون، وربما يغفلون عمداً، أن وصف العبادة بأنها «عبادة العنقاء» لا يمكن إرجاعه إلى أبعد من «هرابانوس ماوروس»، وأن أقدم مصادرها (مثل: ساتورناليا، أو فلافوس يوسفوس) لا تتحدث إلا عن «أهل الممارسة» أو «أهل السر». ولقد لاحظ غريغوريوس، في مسارات فيرارا، أن ذكر العنقاء نادراً جداً ما يرد في اللغة المحكية، وقد خضتُ، في جينيف، مناقشات مطوّلة مع حاذقين لم يفهموني حين سألتُ هل كانوا من أصحاب العنقاء، لكنهم وافقوا فوراً على أنهم كانوا أهل السر. وما لم أكن مخطئاً، لا بدَّ أن يصحَّ كثير من هذا على البوذيين: فالاسم الذي يعرفهم به العالم ليس هو نفسه الاسم الذي ينطقونه.

في إحدى الصفحات الشهيرة حقاً، ساوى «موكلوسيش» أعضاء عبادة العنقاء بالغجر. وفي تشيلي وفي هنغاريا، يوجد كلٌّ من الغجر

Twitter: @ketab_n

وأعضاء الطائفة، وبمعزل عن حضورهما في كل مكان، لا تكاد تشترك الطائفتان بشيء. فالغجر خيالة، وفخارون، وحدادون، وقراء طالع، أما أعضاء عبادة العنقاء فمقتنعون عموماً بممارسة «الحرف الحرة». وينتمي الغجر إلى نمط جسدي معين، وهم يتحدثون، أو تعودوا أن يتحدثوا، بلغة سرية، أما أعضاء الطائفة فلا يمكن تمييزهم عن الناس الآخرين، والدليل على هذا أنهم لم يتعرضوا للاضطهاد أبداً. والغجر رائعو الصور، غالباً ما يستوحيهم الشعراء الرديئون، والمغنون، والمصورون، بينما أخفق الرحالة في ذكر أعضاء الطائفة... يقول مارتن بوبر إن اليهود هم أهل المعاناة في الجوهر، لكن ليس كل أعضاء الطائفة كذلك، بل إن بعضهم يمقتون الشجى. وحسبك أن الحقيقة العامة والمعروفة جيداً تكفي لتفنيد الخطأ الشعبي (الذي دافع عنه أورمان عبثاً) الذي يرى جذور العنقاء تكمن في إسرائيل. وعلى أية حال فاستدلال الناس يجري بهذه الطريقة: أورمان إنسان حساس، وكان أورمان يهودياً، واعتاد أورمان أن يزور أعضاء الطائفة في الغيتوات اليهودية في براغ، وتكفي الصلة التي شعر بها أورمان برهاناً على علاقة واقعية. وبمنتهى النزاهة، لا أستطيع أن أتوافق مع هذا الاستنتاج. فكون أعضاء الطائفة، في وسط يهودي، يشبهون اليهود، لا يبرهن بالضرورة على شيء، ما يمكن إنكاره هو كونهم، مثل شكسبير اللانهائي عند هازلت، يشبهون كلَّ إنسان في العالم. فهم الأشياء كلها عند الناس جميعاً، مثل النبي، وقبل أيام قليلة، كان د. خوان فرانسيسكو أماروا، من بايساندو، يتأمل في السهولة التي

Twitter: @ketab_n

اندمجوا بها، السهولة التي «يطبّعون» بها أنفسهم.

قلتُ إن تاريخ العبادة لا يسجل أي اضطهادات. وهذا صحيح، ولكن ما دامت لا توجد جماعة إنسانية إلا وتشتمل على معتنقين لعبادة العنقاء، فإنه من الصحيح أيضاً أنه لا يوجد اضطهاد إلا وعانى منه أعضاء العبادة أو شدة إلا ولحقت بهم. وفي حروب العالم الغربي والحروب البعيدة في آسيا، ظلت دماؤهم تسيل على امتداد قرون، تحت رايات الأعداء؛ ولذلك يصعب عليهم أن يجتهدوا بمطابقة أنفسهم مع أية أمة على ظهر الكوكب.

ولافتقارهم إلى كتاب مقدس، يوحِّد بينهم، مثلما توحِّد التوراة بني إسرائيل، ولافتقارهم إلى ذاكرة مشتركة، وافتقارهم إلى الذاكرة الأخرى والتي تشكل لغة مشتركة، فقد تشتتوا في بقاع الأرض، وتنوعت ألوانهم وملامحهم، ولم يعد من شيء يوحد بينهم إلا «السر»، وهو ما سوف يوحدهم حتى نهاية الزمان. وبالإضافة إلى السر، فقد راجت خرافة (أو ربما أسطورة عن نشأة الكون)، لكن رجال العنقاء الظاهرين تناسوها، ولم يبق منها اليوم سوى قصة غامضة ومعتمة عن عقاب. ربما عقاب، أو ميثاق، أو إيثار، إذ تختلف الروايات، ولعل ما يستخلصه المرء منها جميعاً هو حكم الله، الذي يعد فيه بالخلود عرقاً من البشر، إذا أدى رجاله، جيلاً في إثر جيل، طقساً معيناً. لقد قارنت بين تقارير الرحالة، وتحدثت مع كبار رجال الدين واللاهوت، وأستطيع الزعم أن أداء ذلك الطقس هو الممارسة الدينية الوحيدة التي حافظ عليها أعضاء

Twitter: @ketab_n

العبادة. والحقيقة أن هذا الطقس هو السر. وينتقل السر، كما قلتُ، من جيل لجيل، لكن التقاليد تحرّم على الأم تعليم السر لأبنائها، كما تحرم تعليمه على الكهنة أيضاً، وتلقين السر هو مهمة الطبقة الدنيا من أفراد الجماعة. يؤدي عبدٌ أو مجذوم أو شحاذٌ دور معلِّم السر. ويمكن لطفل أيضاً أن يستفهم من طفل آخر. والفعل في ذاته تافه، فهو مجرد لحظة من الزمان، ولذلك لا يحتاج إلى وصف. والمواد المستعملة هي فلينة وشمعة وعلكة عربية. (وفي الطقس ذكر «للوحل»؛ إذ تستعمل أيضاً بُرْكة وحل). ولا توجد معابد مكرسة على نحو صريح لعبادة الطائفة، لكن الأطلال والخرائب والأقبية والمداخل تعتبر مواقع مناسبة. والسر مقدس، لكن ذلك لا يمنع من كونه سخيفاً قليلاً، ويختلس أداؤه اختلاساً، بل هو مهمة سرية، ولا يتحدث عنه الخبراء به. ولا توجد كلمات محتشمة يمكن أن يُدعى بها، ولكن من المفهوم أن الكلمات كلها تسميه على نحو ما، أو بعبارة أفضل، أنها جميعاً تلمّح له بالضرورة. ولقد قلت ذات مرة شيئاً غير ذي دلالة في إحدى المناقشات ورأيت الخبراء يبتسمون أو يمتعضون لأنهم أحسوا بأنني لامستُ السرَّ. وفي الآداب الألمانية هناك قصائد كتبها أعضاء الطائفة موضوعاتها الظاهرية هي البحر أو البرق، وكثيراً ما سمعت الناس يقولون إن هذه القصائد هي على نحو ما رموز للسر. تقول إحدى الكتابات المنحولة التي نقلها دو كانج في معجمه: (Orbis terrarum est speculum ludi). وهناك نوع من الرعب المقدس يمنع بعض المؤمنين من أداء بعض أبسط الطقوس؛ وهم محتقرون من أعضاء

Twitter: @ketab_n

الطائفة الآخرين، بل هم يحتقرون أنفسهم أكثر. ومن ناحية أخرى، فإن من يعرضون عن الممارسة ويحققون اتصالاً مباشراً مع الله يحظون باحترام عظيم، ويتحدث هؤلاء الناس عن ذلك الاتصال باستخدام المجازات من الطقس، ولهذا نجد جون الرودي قد كتب ما يأتي:

فلتعلم السموات التسع

أن الإله بهجةٌ كالفلينة والحمأة.

في ثلاث قارات حظيت بشرف صداقة كثير من عبّاد العنقاء، وأنا أعرف أن السر يصدمهم في البداية كشيء تافه ومخجل، ومبتذل، (بل الأغرب) أنه غير معقول. ولا يستطيعون حمل أنفسهم على القبول بأن آباءهم قد انحطوا لمثل هذه الأفعال. والغريب أن السر لم يختفِ منذ زمن طويل، ولكن برغم تقلبات العالم، برغم الحروب والتهجيرات، ما زال ينتاب المؤمنين جميعاً بكامل رهبته. بل تجرأ بعضهم على الادعاء بأنه صار الآن غريزياً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجنوب

كان الرجل الذي نزل على بر بوينس آيرس عام 1871 يحمل اسم يوهانيس دالمان، وكان كاهناً في الكنيسة الإنجيلية. عام 1939، كان أحد أحفاده، خوان دالمان، أمين مكتبة محلية في عموم قرطبة، ويعد نفسه أرجنتينياً أصيلاً. كان جده لأمّه فرانسيسكو فلوريس، من فرقة المشاة الثانية، هو الذي مات على حدود بوينس آيرس، بطعنة رمح سددها له هنود كاتريل، وفي خضم التناقض بين خطي نسبه، اختار خوان دالمان (ربما مدفوعاً بحكم دمه الألماني) الخط الذي يمثله السلف الرومانسي للموت الرومانسي. وفرضت هذه النزعة الوطنية المقصودة، وإن لم تكن المتكبرة، عليه الاعتياش على سيف قديم، وإطار جلدي يحتوي على صور شمسية قديمة لإنسان ملتحٍ بلا ملامح، والاندفاع والإقدام ببعض الموسيقى، واعتياد بعض الأبيات الشعرية حول «مارتن فيرو»، وانصرام السنين، والملل والعزلة. وبالثمن الذي سدده دالمان في حرمانات متعددة صغيرة، تدبر أن يوفر قوقعة في بيت ريفي في الجنوب، كان ذات مرة من أملاك عائلة فلوريس، اعتاد باستمرار أن يتذكر صور أشجار اليوكالبتوس والبيت الوردي، الذي كان مرة قرمزياً. أبقاه عمله، وربما تراخيه، في

Twitter: @ketab_n

المدينة. وصيفاً في إثر صيف، أرضى نفسه بالفكرة المجردة عن التملك، مطمئناً إلى أن البيت كان ينتظره في المكان نفسه في منتصف السهل. وفي أواخر شباط من عام 1939، حصل له شيءٌ ما.

يمكن للقدر أن يتعامى عن الجرم المشهود، وينتقم بلا رحمة من أبسط الأخطاء. في تلك الأمسية حصل دالمان على نسخة (تنقصها بعض الصفحات) من طبعة «ويل» لكتاب «ألف ليلة وليلة». وللهفته إلى تفحص لقيته، لم ينتظر المصعد، بل اندفع مستعجلاً إلى السلالم. وفي العتمة، اصطدم بجبينه شيءٌما – هل كان خفاشاً؟ طائراً؟ على وجه المرأة التي فتحت له الباب، رأى رعباً مهولاً، وعادت اليد التي مرّرها على جبينه حمراء بالدم. لقد جرحته حافة نافذة مصبوغة حديثاً نسي شخصٌ ما أن يغلقها. تمكن دالمان من النوم، لكنه استيقظ في الساعات المبكرة من الصباح، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، صار طعم الأشياء عنده فظيعاً. أنحلته الحمى، وبدأت التصاوير من «ألف ليلة وليلة» تضيء كوابيسه. زاره أصدقاء وبعض أفراد العائلة، وكانوا يخبرونه بابتسامة مبالغة كم يبدو بخير. وبنوع من الخدر الواهن، استمع دالمان إلى كلماتهم، وتعجب لكونهم لا يرون أنه في قعر الجحيم. انقضت ثمانية أيام، وكأنها ثمانمائة سنة. ذات عشية، ظهر طبيبه الاعتيادي بصحبة رجل جديد، واقتادا دالمان إلى مصحة في «كالة إيكوادور»؛ كان بحاجة إلى أشعة أكس. وحين جلس في العربة التي استأجروها لتوصلهم، فكر دالمان، أخيراً، بأنه في غرفة ليست غرفته، صار قادراً على النوم. شعر

Twitter: @ketab_n

بالسعادة والقدرة على التواصل. وفي اللحظة التي وصلوا فيها، جردوه من ثيابه، وحلقوا رأسه، وشدوه إلى أحزمة معدنية على نقالة؛ سلطوا عليه أضواء وهاجة، حتى عمي وداخ، فتسمعوا لحركة قلبه ورئتيه، وغرز رجل بلثام طبي إبرة في ذراعه. استيقظ شاعراً بالغثيان، وملفوفاً بالأربطة، في زنزانة كأنما هي قعر بئر، وفي الأيام والليالي التي أعقبت العملية، صار يدرك أنه لم يكن، حتى ذلك الحين، إلا في ضاحية من ضواحي الجحيم. لم يترك الجليد سوى أثر ضئيل من البرودة في فمه. وخلال تلك الأيام، صار دالمان يكره كل تفاصيل نفسه: كره هويته، وحاجاته الجسدية، وذله، واللحية التي نبتت في وجهه. تحمل برباطة جأشٍ المعالجات التي أُجريت له، وكانت مؤلمة للغاية، ولكن حين أخبره الجراح بأنه على شفير الموت من جراء تعفن الدم، أحسَّ دالمان فجأة بالشفقة على نفسه، وغص بالدمع لقدره. فوضعيته الصحية البائسة والتوقع الذي لا يكل لليالي مرعبة لم يتركا له متسعاً من الوقت للتفكير بشيء مجرد مثل الموت. وفي يومٍ تالٍ، أخبره الجراح بأنه يتعافى، وقريباً جداً سيكون بمستطاعه الذهاب إلى الريف للنقاهة. ووصل اليوم الموعود بسرعة لا تُصدَّق.

يتوله الواقع بالتناظرات والمفارقات الطفيفة؛ لقد وصل دالمان إلى المصحة في عربة، وها هي عربة تأخذه إلى محطة «كونستيتسيون». بدت له نفحة الخريف الباردة الأولى، بعد ضيق الصيف، رمزاً طبيعياً على استرداده عافيته من براثن الحمى والموت. لم تفقد المدينة، في تلك الساعة

Twitter: @ketab_n

السابعة صباحاً، مظهر بيت قديم متداعٍ مما تتخذه المدن في الليل؛ كانت الشوارع أشبه بأروقة وممرات طويلة، والساحات كالأفنية. بعد إقامته الطويلة في المستشفى، تعرف دالمان على المدينة بالتذاذ ولمسة دوار؛ قبل أن تسجل عيناه المظاهر نفسها بدقائق، تذكر الزوايا والظلال، والتنوع المتواضع لبوينس آيرس. وفي ضوء النهار الجديد الأصفر، عادت له الأشياء جميعاً.

يعرف كل أرجنتيني أن الجنوب يبدأ عند الجانب الآخر من «ريفادافيا». واعتاد دالمان أن يقول إن ذلك مجرد اعتقاد، بأن من يعبر ذلك الشارع يدخل عالماً أكثر قدماً وثباتاً. ومن داخل العربة، تطلع بين المباني الجديدة إلى النوافذ الحديد المتصالبة، ومقارع الرصاص، والأبواب المقببة، وطرق المداخل، والأفنية الحميمة.

في المحطة، انتبه أنه ما زال أمام القطار ثلاثون دقيقة قبل المغادرة. وفجأة تذكر أن في مقهى في «كالة برازيل» (على مبعدة بضعة أقدام من بيت يريغوين) قطة كبيرة الحجم تسمح للناس أن يلاطفوها، كأنما هي إله مترفع. دخل المقهى. وكانت القطة نائمة هناك. طلب قدحاً من القهوة، وحركه بالملعقة على مهل، متذوقاً إياه (تلك المتعة التي كانت محرمة عليه في العيادة). وفكر، وهو يمسح على فراء القطة الأسود، بأن هذا الاحتكاك هو وهم، وأن الكائنين، هو والقطة، كائنان تفصل بينهما زجاجة، لأن الإنسان يعيش في الزمان، في التعاقب، في حين أن الحيوان السحري يعيش في الحاضر، في أبدية اللحظة.

Twitter: @ketab_n

كان القطار ينتظر على امتداد الرصيف ما قبل الأخير. تجول دالمان بين العربات حتى وجد عربة فارغة تقريباً. وضع حقيبته في صف الأمتعة. وحين بدأ القطار بالتحرك، فتح حقيبته، وبعد قليل من التردد، أخرج منها الجزء الأول من «ألف ليلة وليلة». فالسفر مع هذا الكتاب، الذي ارتبط ارتباطاً لا ينفصم بتاريخ عذابه، يعني تأكيداً بأن هذا العذاب صار جزءاً من الماضي؛ صار تحدياً ممتعاً سرياً لقوى الشر المحبطة.

على امتداد جانبي القطار، كانت المدينة تتلاشى في الضواحي، وهذا المشهد، بالإضافة إلى منظر الحدائق والفلل، أخرا بداية شروعه بقراءته. والحقيقة أن دالمان لم يقرأ إلا قليلاً جداً. ومن ينكر أن جبل المغناطيس السحري، والجنيَّ الذي يقسم أن يقتل من يخلصه، هي أشياء عجيبة، لكنها ليست أكثر عجباً من هذا الصباح ومجرد واقعة الوجود. صرفه الالتذاذ بالحياة عن الانتباه إلى شهرزاد وحكاياتها العجيبة المتدافعة. طوى دالمان كتابه، وأسلم نفسه للحياة.

وكان العشاء (الحساء الذي قُدِّمَ في صحون معدنية لماعة، كما في أصياف الطفولة النائية) متعة أخرى أكثر بهاءً وعطاءً.

فكر مع نفسه، سأصحو غداً في الريف، وشعر كما لو أنه كان إنسانين في وقت واحد: إنسان ينزلق على امتداد يوم خريفي وجغرافيا أرضه الأم، وإنسان آخر بقي مشدوداً في المصحة وعرضة للعنايات المنهجية. رأى بيوت طابوق غير مجصصة، طويلة ومنزوية، وهو يراقب القطار ينهب الأرض بلا انتهاء، رأى خيالة على طرق قذرة، رأى خنادق

Twitter: @ketab_n

وبحيرات ومراعي، رأى غيوماً طويلة متوهجة كأنما هي من المرمر، وكانت كل هذه الأشياء اتفاقية وعابرة، مثل حلم في السهل المكشوف. وقد فكر أنه يعرف هذه الأشجار والمحاصيل، لكنه لا يستطيع تسميتها، لأن معرفته الفعلية بالريف أدنى بكثير من حنينه ومعرفته الأدبية.

كان يغفو بين الحين والآخر، وقد بثَّت حركة القطار العنفوان في أحلامه. اصفرت الشمس البيضاء التي لا تطاق في منتصف النهار، وستحمرُّ قريباً قبل حلول المساء. واختلفت عربة القطار الآن أيضاً؛ لم تعد هي نفسها العربة التي انطلقت من المحطة في بوينس آيرس – فقد نفذت إليها السهول والساعات وحوَّلتْها. في الخارج، امتد ظل القطار المتحرك نحو الأفق. والأرض الأولية لم تعد تتخللها المستوطنات أو أية علامات أخرى على الإنسانية. كان الريف مترامياً، لكنه في الوقت نفسه حميم وسري على نحو ما. أحياناً لا تحتوي الأرياف الممتدة إلا على ثور منفرد. كانت العزلة تامة، وربما عدائية، حتى لقد ساورت دالمان الشكوك بأنه لا يسافر فقط إلى الجنوب، بل إلى الماضي أيضاً. ولكن انتزعه من هذه التأملات الشاردة مفتش القطار، الذي أخبره، وهو يعاين تذكرته، بأن القطار لن ينزله في المحطة المعتادة، بل في محطة أخرى، قبلها بقليل، وذلك ما لم يكن يعرفه دالمان. (وأضاف الرجل تفسيراً لم يحاول دالمان فهمه، بل لم يستمع له أصلاً، لأن آليات الأحداث لا تهمه).

وصل القطار مجهداً إلى نهاية الخط، في الحقيقة في منتصف الريف.

Twitter: @ketab_n

كانت المحطة تقع على الجانب الآخر من المسالك، ولم تكن سوى رصيف مغطى. لا تتوفر فيه مركبة، لكن رئيس المحطة توقع أن يتمكن دالمان من العثور على واحدة عند محل أرشده إليه، على بعد عشرة قواطع أو اثني عشر.

قَبِلَ دالمان بالمشي كمغامرة صغيرة. صارت الشمس الآن تتلاشى وراء الأفق، لكن إشراقاً أخيراً ما زال ينبسط على السهل الحي والصامت، قبل أن تطمس الظلمة لونه. لم يكن يريد أن يتحاشى الإرهاق بقدر ما كان يريد لهذه الأشياء أن تمكث، تمشى دالمان على مهل، مستنشقاً بالتذاذٍ رزينٍ رائحة البرسيم.

كان المحل ذات مرة قرمزيَّ اللون، لكن السنين لطّفت من هذا اللون العنيف، وجعلته أكثر جمالاً. في معماره البائس شيءٌ ما ذكّر دالمان بنقش على المعدن، ربما كان مرسوماً على طبعة قديمة من «بول وفرجينيا». رُبط عدد من الخيول إلى السياج في الواجهة. في داخله، فكر دالمان بأنه يعرف صاحب المحل. ثم أدرك أن الشبه خدعه مرة مع أحد الممرضين في المصحة حين توهمه شخصاً آخر. وحين سمع صاحب المحل طلب دالمان، قال إنه يستطيع استخدام عربة ذات غطاء، ولكي يضيف حدثاً آخر لذلك النهار، ولكي يقتل الوقت، قرر دالمان أن يأكل في المحل الريفي.

على إحدى الطاولات، كان يجلس شابان بمظهر خشن، يأكلان ويشربان بضجيج، في البداية لم يعرهما دالمان اهتماماً. وعلى الأرض،

Twitter: @ketab_n

متكوماً أمام المشرب، يجلس شيخ كبير، بلا حراك كأنه شيء ما. لقد أنحلته السنين وصقلته، كما يصقل الماء الأحجار، أو أجيالاً من البشر الأمثال. كان صغيراً، أسود اللون، جامد الملامح، وقد بدا خارج الزمن، في نوع من الأبدية. لاحظ دالمان منديله وعباءة البونتش والجزمة الجلدية الطويلة التي يحتذيها، وقال لنفسه، وهو يتذكر المناقشات العقيمة مع أهل الضواحي في الشمال، أو أهل مقاطعة «أنتري ريوس»، بأن الخُرَقاء مثل هذا لم يعودوا يوجدون إلا في الجنوب.

ارتاح دالمان للجلوس إلى جوار النافذة. وشيئاً فشيئاً، بدأت الظلمة تهيمن على الريف، لكن عطور الريف وأصواته ظلت تخترق قضبان الحديد على النافذة. جلب له صاحب المحل السردين ثم بعض اللحم المشوي. غمره دالمان بأكثر من قنينة واحدة من الخمرة الحمراء. وبفتور، استطاب نكهة الخمرة، وسمح لنظراته بأن تتجول في المحل، الذي تحول الآن إلى منوِّم قليلاً. يتدلى من الدعامة مصباح كيروسين. على المائدة الأخرى، هناك ثلاثة زبائن: يبدو أن اثنين منهم عاملان زراعيان؛ والثالث، الذي تشي ملامحه بدمائه الهندية، جلس يشرب، وهو يعتمر قبعته. فجأة شعر دالمان بشيء ما خفيف يصطدم بوجهه. وإلى جوار قنينة الخمر، عند غطاء حافة الطاولة، وقعت كرة صغيرة من الخبز المنقوع. كان ذلك كل شيء، فقد رماها أحدهم بوجهه.

لا يبدو أن السكارى على المائدة الأخرى قد فطنوا إلى وجوده. قرر دالمان، محتاراً، أن شيئاً لم يقع، وفتح كتاب «ألف ليلة وليلة»، وكأنه

Twitter: @ketab_n

يريد تخطي الواقع. بعد دقائق قليلة، ضربته كرة خبز منقوعة أخرى، وضحك العمال هذه المرة. قال دالمان لنفسه إنه ليس بخائف، لكن من الجنون بالنسبة إلى مريض مثله أن يجرَّه غرباء إلى مبارزة عشوائية بالقضبان. قرَّ قرارُه على المغادرة، ونهض على قدميه، حين اقترب صاحب المحل وخاطبه بصوت تحذيري: «يا سيد دالمان، تجاهل هؤلاء الفتيان، فهم ثملون».

حينئذ لم يجد دالمان أن من الغريب أن يعرف صاحب المحل اسمه، لكنه أحسَّ أن كلمات الرجل التحذيرية جعلت الأمر يزداد سوءاً في الحقيقة. قبل لحظة، كان استفزاز هؤلاء موجهاً إلى وجه مجهول، بل إلى لا أحد، أما الآن فقد صار هجوماً يستهدفه، ويستهدف اسمه، وسيعرف هؤلاء الفتيان على المائدة الأخرى هذا الاسم. دفع دالمان صاحب المحل جانباً، وسأل العمال ما الذي يريدون منه.

نهض الخشن ذو الملامح الهندية، وهو يترنح. وبدأ بقذف شتائمه، على مقربة من دالمان، ولكنه صرخ وكأنه بعيد عنه. كان يمثل أنه بالغ في السكر، وأن مبالغته يجب أن تعطي انطباعاً بالشراسة والسخرية. وبين اللعنات والشتائم، رمى الرجل سكيناً طويلة في الهواء، وتابعها بعينيه، وتلقفها، وتحدى دالمان إلى المبارزة. ارتفع صوت صاحب المحل معترضاً بأن دالمان غير مسلح. وعند تلك اللحظة، حدث شيء ما غير متوقع.

من زاوية الغرفة، رمى له الأخرق العجوز الجاثم، الذي رأى فيه

Twitter: @ketab_n

دالمان رمزاً للجنوب (الجنوب الذي ينتمي له)، خنجراً مجرداً، جاء ليستقر عند قدمي دالمان. كأن «الجنوب» بنفسه أراد لدالمان أن يقبل التحدي. انحنى دالمان لالتقاط الخنجر، وفي انحناءته شعر بشيئين: الأول أن الفعل الغريزي تقريباً يدعوه إلى المبارزة، والثاني أن السلاح في يده الخدرة لن يجدي نفعاً في الدفاع عنه، لكنه سيعطي الآخر مبرراً لقتله. لقد استعمل الخناجر قبل الآن، مثل كل الرجال، لكن معرفته بالمبارزة بالسكاكين لا تتجاوز حدود الذكرى الشاحبة بأن جميع الضربات يجب أن تُسدَّدَ إلى الأعلى، والحافة الحادة إلى الأسفل. فكر مع نفسه: **ما كانوا ليسمحوا بحدوث شيء كهذا لي في المصحة.**

قال الرجل الآخر: «كفى تأخيراً. فلنذهب إلى الخارج».

خرجا إلى الخارج، وبالرغم من أن دالمان كان بلا أمل، فإنه لم يخف أيضاً. وحين عبر العتبة، شعر أن الموت في قتال بالسكاكين، تحت السماء المفتوحة، والإقدام على الخصم، في تلك الليلة الأولى في المصحة، حين غرزوا الإبرة فيه، كان سيكون نوعاً من الانعتاق، والالتذاذ، والاحتفال. شعر بأنه لو كان في وسعه أن يختار أو يحلم بموته تلك الليلة، لكان هذا هو الموت الذي يختاره أو يحلم به.

أحكم دالمان قبضته على السكين، التي ما كانت لديه فكرة عن استعمالها، وخرج باتجاه السهل.

Twitter: @ketab_n

ملاحظات

- تمت ترجمة الكتاب اعتماداً على عدد من الترجمات الإنجليزية، في مقدمتها «الأعمال القصصية الكاملة» لبورخيس بترجمة: أندرو هيرلي، الصادرة عن دار بنغوين، 1998، وروجعت على «قَصص» الصادرة عن دار إيفريمان، 1962. وحرصت الترجمة العربية على نقل إيقاع الأفكار أكثر من حرصها على الالتزام بالدقة الحرفية.
- وجميع هوامش متن الكتاب هي من وضع المؤلف، كجزء من العمل السردي. لكن الترجمة سمحت لنفسها بالاجتهاد على نحو ما كالتالي:
- في القصة الأولى، تعني كلمة (capangas) المشرفين على العمال، أو كبار العمال، في المناطق الريفية، وليس في المزارع، وغالباً ما يكونون عبيداً أو أشباه عبيد. ويعتقد أن الكلمة غوارانية الأصل، أو هي إفريقية، دخلت إلى اللغة الإسبانية.
- في قصة «فحص أعمال هربرت كوين»، استفاد الأصل الإنجليزي من التورية بين (March): شهر آذار، و(march) بمعنى: المسيرة. ويمكن أن تعني العبارة في الإنجليزية: مسيرة نيسان. وتستفيد الترجمة العربية من كون (نيسان) يمكن أن تحيل إلى نوسان، فيكون معنى العبارة: اضطراب آذار.
- العنوان الحرفي لقصة «ذاكرة فونس الحية» هو (فونس المتذكر) أو (فونس الذكّير).

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

كاتب أرجنتيني (1899 - 1986)، وصفه ماريو فارغاس لوسا بأنه (أهم كاتب في اللغة الإسبانية منذ سرفانتيس). أصدر عدداً من الكتب النظرية، وتسع مجموعات قصصية، هي على التوالي:

- تاريخ عالمي للعار (1935).
- قصص، وتضم مجموعتين (1944).
- الألف (1949).
- الصانع (1960).
- في مديح الظلمة (1969).
- تقرير برودي (1970).
- كتاب الرمل (1975).
- ذاكرة شكسبير (1983).

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجم:

كاتب عراقي يقيم في أستراليا، له أكثر من ستين كتاباً.

من أعماله المترجمة:

- كتاب الرمل (قصص، لبورخيس)، منارات، الأردن، 1990.
- الصانع (نصوص وقصص لبورخيس)، بيروت، 1995.
- الغابة النرويجية (رواية لموراكامي)، بيروت، 2006.

من أعماله الأدبية:

- البدايات الأخيرة (شعر)، أبو ظبي، 2009.
- كنوز وبار، الملحمة العربية الضائعة، دار الجمل، بيروت، 2010.

تحت الطبع:

- حكاية الشيخ سمعان (رواية).

Twitter: @ketab_n

قَصَص

يعلل بورخيس صدوده عن كتابة الرواية بالكسل. غير أن مجموعاته القصصية التسع تضجُ بإمكانات متنوعة لكتابتها. فحين يتحول العالم نفسه إلى مكتبة، ويتناسل الكتاب إلى عدد لا يُحصى من الكتب، يتحدث كل كتاب فيها عن كتب سابقة ولاحقة عليه، تصبح الحياة نفسها سرداً لا ينقطع، وينقسم زمان العالم إلى أزمنة لانهائية تتقاطع وتتداخل وتتشعب. فالحياة - عند بورخيس- «قَصَص»، بمعنى خيال سردي يتملص من حدود الزمن الضيقة، ويحن إلى أن يصير خيالاً يحتال به لاصطياد الأبدية الهاربة دائماً.

وقد أدرك عاشق المتاهات منذ بواكير بداياته أن مادة هذا العالم المصنوع من الكتب تكمن في الأحلام. وقال عام 1931: «كتب شوبنهاور أن الحلم واليقظة يشكلان صفحات كتاب واحد، وأن قراءتها من أجل الحياة، وتقليبها كيفما اتفق يعني أن نحلم. وتساعدنا الرسوم داخل الرسوم، والكتب التي تتفرع إلى كتب أخرى على الإحساس بهذه الواحدية».

يضم كتاب «قَصَص» مجموعتين من قصص بورخيس: حديقة المسالك المتشعبة، التي يتيه فيها القارئ في متاهات الأبنية الزمنية المتقاطعة، ومجموعة «احتيالات»، التي يحتال فيها المؤلف لإخراج القارئ بوعده بصروح زمنية سردية من نوع آخر.

@ketab_n
Follow Me

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

الهدهد
HUDHUD

9 789948 172116